عصير الكتب
للنشر الإلكتروني
رواية
غَوْث
د/ أميرة زقزوق

روايـــــة

غَـــــوْث

الكـــاتبـــة

د. أميرة زقزوق

عصير الكتب.

عصير الكتب

غلاف خارجي

محفوظ أحمد

غلاف داخلي وتنسيق

رابط إلكتروني

أمل نوح

غَوْث

البداية

في جو بدا مشحونًا كآبة، يتأوه فيها الشتاء بين قطرات المطر، يعوي الرعد في أذنه، يصرخ بأعلى قوته" زوجتك خائنة" .. ينزلق الإسفلت أسفل عجلات سيارته التي بدت وكأنها ترتفع قليلًا في الهواء إثر سرعتها المجنونة، ينفجر الدم في عروقة فيتردد صدى نبضات قلبه داخل يديه المسكتين بمقود السيارة.. الرياح تعوي .. المطر يتأوه .. تتسابق البيوت من حوله وهي تحدق به خلف زجاج سيارته بسخرية إلى أين أيها الأبله؟.

عصير الكتب
غَوْث

تجيب سيارته بصرخة مدوية وهي تتحاشى شجرة ظهرت فجأة على قارعة الطريق " ذاهب كي يتأكد من مدى بلاهته بأم عينيه" يضغط بحنق على زر الوقود فيجيبه ساخرًا هو الآخر بأنه قد وصل إلى أقصى درجاته..قلبه يحتضر، ينبض ألمًا ينتفض بكل ذرة بكيانه، عيناه تبكيان بحرقة فتسقط دموعهما للداخل.

سحقًا لا لن يبكي أبدًا .. لن يندم.. لن يتعذب... سيصل الآن ويراها داخل أحضان عشيقها، سيقتلها بدم بارد، سيثأر لنفسه من امرأة أهداها روحه قبل قلبه، أهداها حنانه قبل حبه، سيثأر لنفسه من امرأة

عصير الكتب
غَوْث

لم ترى فيه سوى المال، سيثأثر من المراهق الساذج داخله الذي كان يعلم كل هذا ولكنه ترك دفة القيادة لقلبه فأصر أن يكمل حياته معها.. المطر يئن.. سيارته تصرخ متعبة.. لحظات ويصل منزله الذي فارقه منذ ساعات كي ينهي عمله..

البيوت تعدو والأشجار تتسابق على جانبي الطريق، يودون التشفي برؤية ذلك الأبله ذو القلب المفطور، يتنهای إلى مسامعه أصواتها الساخرة " يا أحمق زوجتك خائنة " يضغط بحنق فوق زر البنزين فلا يجيب ساخرًا منه هو الآخر.

عصير الكتب
غَوْث

الرعد يصرخ بأذنه.. الرياح تعوي.. المطر يئن.. تقترب السيارة من منزله الذي يطلع إليه مستهزئًا " تخونك داخلي، داخل منزلك يا أكبر أحمق عرفه عالم الرجال"

تنزلق قدماه الداميتان من السيارة، بخطى محمومة وقلب نافرة دقاته توجه لمنزله، لفح أنفه رائحة لم تكن له يومًا، ومع ذلك تَعُب المنزل وكأنها على عهد قديم به. بنظرات تائهة بحث حوله عن أحد من الخدم فلم يجد، تسلق درجات السلم التي بدت وكأنها أشواك تُغرس بقدمه.يدلف الممر المؤدي إلى حجرته.

عصير الكتب
غَوْث

غمامة من الظلام تغلف عينيه وكأن الأخيرة تود لو تنسحب من رؤية ما سوف يكون، تلتهب أعصابه حين يبصر ثوب زوجته ملقى فوق الأرض الخشبية أمام باب غرفته، تفور الدماء برأسه، يقترب بخوف غامض، يقترب أكثر والمسافة الفاصلة بينه وبين الباب بدت له بطول العالم وإن كانت لا تتجاوز المترين، ثم يهوي صوتها كسكين فوق قلبه الدامي فتمزقه أشلاء مهترءة لا حول لها ولا قوة، تسمر أمام الباب وكأنما حال جسده إلى تمثال من وجع، لف قلبه شعور بغيض كالموت، ساد الصمت إلا من صوتهما..

عصير الكتب

زوجته تتغنج بمعسول الكلام مع رجل غيره يلهب جسدها بعبارات حب رخيصة ، تخترق أحاديثهما روحه فتحرقها لتخلف وراءها بقايا رماد، فاضت روحه أو كادت جراء جرعة الألم الزائدة عن الحد، تَلُفَت أعصابه قبل أن ينقض بقبضة يده على مقبض الباب...

عصير الكتب

١

الطفلان

لا أظن أن فتاة هشة مثلي تستحق هذا النوع من العذاب، لا أستطيع على وجه الدقة معرفة ما يحدث لي، كل ذرة بجسدي تئن وجعًا، وكأن قطارًا ما مر من فوقي فدهسني أسفل عجلاته الحديدة بغيرما رحمة، أصرخ وأنتحب ولكن صوتي لا يخرج وكأنما حبالي الصوتية قد أصابها التحجر فحالت حبالًا لنشر الملابس، لا أحد يسمعني ولا أرى أحدًا، تعاندني عينيّ تأبى أن تنفرجا،

غَوْث

أحاول جاهدة للمرة المائة بعد الألف أن أحرك يدي كي أشعر أني مازلت قادرة على الإتيان بأي حركة من مظاهر الحياة، ولكنها تجيبني بنصيب أكبر من الألم، يحوطني ظلام كالموت، سكون كالقبر.. هل أنا في القبر؟! وهذا العذاب بجسدي هل هو إثر ضمته لي؟!

غاص قلبي في مكانه متوجسًا، لا لست مستعدة بعد...

جاء صوت من بعيد، صوت دقات متتالية بطريقة ديناميكية رتيبة مملة، تثير البغض في النفس، بدأت همهمات حوله تظهر، وكأن أذني بدأت في استيعاد حاستها، تعالت الهمهمات لتصبح أصواتًا واضحة،

ومازال صوت الدقات الممل واضحًا في الخلفية، كانت الأصوات جلية بيد أنني عجزت عن تمييز كلماتها..

لاحظت أن ألم جسدي خف قليلًا ولكنه مازال مستمرًا بعناد مثير للسخط، تبدت ألوانًا باهتة في العتمة أمامي، حاولت بأقصى قوتي تدقيق النظر بها ولكني لم أكن أنظر من الأساس!! أدركت ذلك حينما وجدت جفناي يبتعدان عن بعضهما بتثاقل وبطء شديدين، وكأنهما تبذلان قوة خارقة تحاولان استمدادها من جسدي الهامد، أبصرت وجهًا منكبًا فوق رأسي يطالعني بنظرات متفحصة، بدت أنفه أكبر ما فيه،

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

أغمضت عيني أكافئها بقليل من الراحة وفتحتها ثانية، لأجد أن الوجه ذو الأنف الكبير مازال منكبًا فوقي يتأملني بفضول، وكأنه ينتظر مني إمارة ما،

انفرجت شفتاه وأتى صوته مبهمًا، حاولت تمييز شيئًا مما قال ولكن عقلي لم ينصفني، أعاد الوجه ذو الأنف الكبير حديثه كرة أخرى عندما لم يجد مني جوابًا، ميزت هذه المرة بعضًا من كلماته: – سلامتك.. أفضل.. هل ... ألم...

ظللت أحدق بالوجه عابس النظرات، شعرت بنفسي قادمة من عالم آخر عبر بوابة زمنية،

غَوْث

ومازال عقلي غير قادر على استيعاب ما يحدث حولي، أعاد كلماته مرة أخرى بنبرة أعلى وكأنما يظن العيب بأذني وليس عقلي الذي لم يفق بعد:

– حمدًا للّه على سلامتك، هل تشعرين بأي ألم؟

تنبهت حواسي فجأة وكأنها كانت مستسلمة لنوم عميق صعُب عليها التحرر من خدره، أدركت بأنه طبيب وأني مستلقية بمشفى ما، ولم يفت عليّ أن الصوت الرتيب كان صوت جهاز بجواري يتحدث نيابة عن دقات قلبي المتزامنة بدقة إلهية، خرج صوتي متعبًا:

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

-ما الذي حدث؟!

بإشارة من يديه أوقف حديثي الذي لم يبدأ، اعتدل في وقفته فبدا أنفه أصغر نوعا ما، قائلًا بابتسامة بلهاء رسمها كيفما أتفق فوق شفتيه:

-لا تتعبي نفسك بالحديث الآن يجب أن ترتاحي قليلًا ثم ستفهمين كل شيء، مايهم الآن أنك أفقت بالسلامة.

ضربت بنصيحته عرض الحائط، وبصوت يقطر ألمًا فائضًا عن جسدي سألته:

غَوْث

عصير الكتب

- لمَ أشعر بكل هذا الأم بجسدي؟ وماذا حدث كي آتي لهنا؟

لم يجبني وتوجه بحديثه للممرضة الواقفة خلفة التي لم ألحظ وجودها قبل الآن طالبًا منها إعطائي حقنة مسكنة

ثم غادر الحجرة دون أن يوجه لي أي حديث آخر ..أي قلة ذوق هذه!!

****

غَوْث

أحببت الممرضة بصدق حين ذهب وجع جسدي أدراج الرياح

بعد أن دفعت بالمحلول المسكن داخل أوردتي، بدأ عقلي يعمل وكأنه كان عاجزًا مع وجود الألم، أعرف الآن سبب قدومي إلي هنا،

أرى نفسي وأنا أقود سيارتي إلى (الغاليري) حيث تُعرض لوحات، يدي هي التي تدب فيها معالم الحياة، أقود بسرعة متلهفة، بقلب يقظ، وروح مشتاقة، أسعى لتلك اللحظات الفريدة التي تتسلل

عصير الكتب
غَوْث

فيها السعادة لقلبي وتسكن فيه برضا حين أرى أعين الناس المبهروة بما تصنعه يدي.

تتضاعف سعادتي وأغرق بها حد النشوة حين أذوب في ألواني، فأغيب عن عالمي إلى عالم آخر داخل لوحة أجسدها بإحساسي، وأملؤها بمظاهر الحياة.

دائمًا وأبدًا كان الرسم هو طوق النجاة لي، أهرب به من كل ضغوطات العالم، أنسل بروحي بعيدًا حين ألتقط الفرشاه بين أصابعي وكأن بها سحرًا من نوع ما، الرسم وحده هو ماعوضني نسبيًا عن رحيل أبي.

عصير الكتب
غَوْث

أبي هو الرجل الوحيد الذي ملك قلبي، يذوب صوته بذهني واضحًا جليًا بنبرته الحنون " أريدكِ أن تصبحي أعظم فنانة في العالم بأسره يافريدة"

ذهب أبي وبقيت كلماته التي تتجسد مع كل لوحة ترسمها أناملي،

لا يسعد روحي غير الألوان التي أنشرها بتناسق في كفن لوحة ما لأهب لها الحياة، إني أحيا بالرسم وأتنفسه.

عصير الكتب
غَوْث

طفت على ذهني صورتي واضحة جلية وأنا أقود السيارة بنهم، وأدندن بأغنية عالقة كلماتها بلساني،

أتطلع للمرآة الأمامية، أهندم مظهري الذي كان يبدو بسيطًا غير متكلف وهذا ما كان يشعرني بتميزي، بدت عيني مرهقة نوعًا ما، مددت يدي نحو حقيبتي أخرج منها قلم قلم كحل أسود اللون أرسم به حدود عيناي ليظهر لونهما البني، يدوي صوت مفزع شق السماء، صعق قلبي وانتفضت روحي حين ارتطمت بمقود السيارة أمامي، بدأت حواسي تخور تدريجيًا

عصير الكتب
غَوْث

وأنا أتحسس سائلًا لزجًا شعرت بسخونته تنساب ببطء فوق وجهي.

تماثلت صحتي للتحسن، وقل ألم جسدي كثيرًا بل إني لم أعد أشعر بأي شيء بذراعي المسجونة داخل الجبيرة، جالسة على طرف السرير أنظر لأمي التي تعد حقائب استعدادًا للخروج من المشفى، أراقبها وهي تتحرك بخفة رغم ثقل وزنها، تطلعت نحوي حين لاحظت تأملاتي لها فابتسمت برقة وأكملت عملها دون أن تُعلق، دائمًا ما كانت ولا زالت قليلة الكلام، بددت الصمت بسؤالي:

عصير الكتب
غَوْث

– ماذا حدث للرجل الذي صدمني بسيارته؟

تقلص وجهها وبدر الحزن على ملامحها وبحنان طغى على نبرتها أجابت:

– مازال في غيبوبة، قال لي الطبيب أن حالته حرجة وقد أُصيب بضربة قوية أثرت على رأسه واختلت وظائف مخه.

تنحى الحزن من وجهها قليلًا ليترك جانبًا للدهشة التي علمت أن مصدرها عدم الفهم، تنهدت بحزن وكأنما حزنها انتقل إليّ: مؤسف أمره.

عصير الكتب.
غَوْث

- علقت وهي تعينني على النهوض:

- نعم إن حالته تدمي القلب.

أردفت وهي ترنو إلي بترقب:

- أنتِ لا تمانعين أن تتنازلي عن القضية التي رُفعت ضده أليس كذلك؟

ندّت مني ضحكة قصيرة وربتُ على يدها مطمئنة:

- نعم فالمهم أني بخير، ويصبح هو أيضًا بخير.

عصير الكتب

غَوْث

وبينما كنا على وشك الخروج من الغرفة إذ بدت وكأنها تهتز تحت قدمي فتوقفت عن السير بغتة أحاول السيطرة على أنفاسي الهاربة، تحجرت مقلتاي وجنت ضربات قلبي حين اختفت أمي من جواري بلمح البصر، بذعر ارتجف له جسدي تلفّت أبحث عنها ولم أجدها، بل إني لم أجد الغرفة من الأساس!!

رأيت ضلامًا ممتدًا إلى ما لانهاية، تسلل الخوف إليّ ينخر عظامي، ببقايا قوة مزعومة جاهدت السقوط،

عصير الكتب
غَوْث

انسحبت الدماء من عروقي حين أبصرتُ شيئًا في الظلام، شيء أشبه بظل شخص دون الشخص!

تجمدت كل ذرة بجسدي حين إقترب الظل، أتاني صوته كصفعة أدمت قلبي فزعًا، لم ينجح الخوف بردع الدهشة التي تملكتني حين تردد صوته عذبًا رقيقًا بمسامعي، فانسحب خوفي منه على استحياء

حين قال الصوت الذي بدا نابعًا من داخلي وليس من الظل أمامي بنبرة راجية.

- لا تذهبي، قد يبدو لكِ الصعب هو أسهل خيار.

عصير الكتب

شيء ما بصوته جعلني بدلًا من الخوف أتوق لرؤية وجهه، سألته وقد خرج صوتي بنبرة أكثر خوفًا مما ظننت:

– من أنت؟!

جفلت حين رأيته يتلاشي في الهواء، والظلام يتبدد كما لو لم يكن من الأساس، إهتز جسدي إثر هزة خفيفة أسفل قدمي لتظهر أمي من العدم تساندني بملامح فزعة:

– ما بالك يا فريدة هل تشعرين بدوار؟

عصير الكتب
غَوْث

بحثت عن أي خوف يكمن بملامحها، فلم أجد سوى اهتمام ممزوج بقلق على صغيرتها، خرج صوتي مضطربًا:

- هل رأيتِ ماحدث للتو؟

ببساطة أجابت:

- نعم لقد أصابك دوار، هل نعود للفراش؟

خُيل إليّ أنها لم ترَ شيئًا، أنا فقط من شاهدت ما لايُرى،

عصير الكتب
غَوْث

كيف يظهر الخيال بالظلام؟ كيف يظهر الأسود في الأسود؟

انسحبنا سويًا من الغرفة، بعقل شبه غائب وروح مشتتة يغلفها شيء كالخوف، هل هذا آثار نفسية للحادث؟ لابد وأنه كذلك، ركنت نفسي لهذا الاستنتاج واستكانت له.

انسللت داخل فراشي بعد أن ساعدتني أمي لتغيير ملابسي، بتعب شديد أغمضت عيني باستسلام لخدر النوم، تمنيت لو أستيقظ معافاة تمامًا كي استلم لوحاتي التي اشتقت إليها من جديد.

عصير الكتب
غَوْث

دهاليز مظلمة، وأصوات مبهمة تأتي من خلفية بعيدة، أقف في المنتصف وكأنما وقعت داخل متاهة، تحسست الحائط جواري أبحث عن مخرج ما، الأصوات حولي ترتفع شيئًا فشيئًا وأصبحت متداخلة وأكثر تعقيدًا، كانت خطواتي متعثرة فيما أحاول أن أهتدي بضوء القمر، تناهت الأصوات مرة أخرى على مسامعي وبصعوبة حاولت تمييزها، كانت أصوات رجال مختلطة بنبرة امرأة تكرر صرخة فزعة يثب لها قلبي وتنعدم أنفاسي فزعًا، أصبحت خطواتي أكثر تعثرًا واضطرابًا فيما أبحث بهستيرية عن مخرج ما فلا أجد

عصير الكتب
غَوْث

سوى غرفة مغلقة أخشى الدلوف إليها، تسرب إلي بعضًا من الراحة المشوبة بالقلق حين وجدت نفسي أمام صالة فسيحة بمنزل مهجور كالقبر، تعثرت مرات ومرات وأنا أبحث عن باب الهروب، ومع كل مرة أتعثر فيها تتعالى صرخة المرأة لتدمي قلبي الفزع، وكأن كل ماحولي من ظلام ليس بكاف!

وبينما كنت كذلك حتى شعرت بروحي تخرج من جسدى ويهوي قلبي

عصير الكتب
غَوْث

حين أبصرت طفلين يعدوان من أمامي بسرعة البرق، شل جسدى وبخوف تمكن من قلبي بحثث عن صوتي فندت عني صرخة فزعة كتلك التي سمعتها للتو! !

كان حلمًا بشعًا، بل كابوسًا مدمرًا، دلفت أمي إلى الغرفة مهرولة بفزع إثر صيحتي، هدأت من روعي بكوب ماء، سحبتني إلى حضنها الدافئ، وبحنانها الفائق رتبت على شعري، جعل دفء حضنها ضربات قلبي أكثر انتظامًا وهدأ من ثورة أنفاسي،

وما إن لاحظت هدوئي حتى طلبت مني الانضمام إليها لنتناول الغداء سويًا فقد قضيت الكثير من الوقت

عصير الكتب

نائمة، تبعتها بعقل مازال يدرس تفاصيل الحلم، كيف كان حقيقيًا إلى هذا الحد؟ لقد بدى كل شيء فيه ملموس إلى أبعد مدى، بل إني حتى مازالت أشعر بملمس الحائط الخشن، نظرت ليدي بتلقائية وأنا أتخذ مقعدي إلى الطاولة، شهقت بحيرة واتسعت عيناي حين وجدت أثر غبار أسود على يدي، بذعر هتفت أمي وكأنما انتقل إليها ذعري:

– فريدة ماذا بكِ؟

لم أزح بصرى من فوق يدي وأنا أجيبها بصوت مضطرب حائر:

عصير الكتب
غَوْث

– يوجد أثر لغبار على يدي.

وقفت لثواني تنظر ليدي وقالت ببساطة :

– ليس غبار بل هي آثار كحل.

هتفت حين استفزني برودها :

– ومن أين يأتي الكحل فوق يدي

يا أمي؟

عصير الكتب
غَوْث

أجلستني بحنان ونظراتي مثبتة فوق وجهها أستجديها لتنتشلني من حيرتي، وبهدوء مخالف تمامًا لعصبيتي أوضحت:

- فريدة حبيبتي هذا حالك دائمًا فأنتِ مولعة بالكحل.

أستأنفت حديثها وهي تبتعد فيخفت صوتها تدريجيًا:

- سأجلب لكِ منشفة مبللة تنظفين يدك بها قبل تناول طعامك.

عصير الكتب.
غَوْث

كان تفسيرها صحيحًا من وجهة نظرها، معقولًا من وجهة نظر المنطق بيد أن عقلي لم يرتح لهذا التفسير، ركن ما بقلبي يخبرني أنه من آثار الحلم،

تحسست الغبار بإصبعي فوجدته ثابتًا معاندًا لي، رفعت نظري نحو أمي القادمة تزين شفتيها ابتسامة عريضة، لم أبادلها الابتسام، لم أهتم بها، سرق اهتمامي طفل خلفها يعدو صوب المطبخ ليلحقه طفل آخر ظهر من العدم، وقع قلبي فزعًا حين أدركت أنهما الطفلان.. طفلا الحلم!!

٢

الأرقام

بعقل غائب يتمدد جسدي فوق الفراش أحدق بذراعي التي بدت ضامرة بعض الشيء بعد أن أتى الطبيب ونزع جبيرة الجبس من حولها، تقفازت صور الطفلين أمامي وهما يعدوان خلف أمي مباشرة، لم أصرح لها بما رأيته، فأنا بطريقة ما أدركت أنني فقط من أراهما، شيء بداخلي على يقين بأن للحادث دخل كبير بما يحدث معي، ولكن كيف ولمَ يحدث لي هذا، أنا حقًا لا أدري؟؟

عصير الكتب
غَوْث

زفرت بضيق ذرات الحيرة، وتنهدتُ بهون، قلبت عيني لأجد اللوحات البيضاء والألوان المائية مسجاة أمامي على أرض الغرفة، بدت وكأنها تهمس لي " هيا لتقري بخواطرك فوقي" " تعالي والتقطيني لتفشي فوقي حياة من صنع أناملك"

وقد كان ماطلبته، إذ بعد دقائق كنت أجلس أمام لوحة بيضاء تنتظر مني أن ألونها بألوان الحياة وأجلي فيها مظاهر الحركة، حمدت اللّه أن ذراعي اليمنى كانت سليمة، وكعادتي قبل أن أخوض أي تجربة رسم جديدة كنت قد وضعت قدح الشاي

الخالي من السكر على الكرسي جواري، وشرع صوت فيروز يلوح بالأفق ليحيل ذرات الهواء حولي إلى ذرات من عبق الياسمين أو شذى الفل أو هكذا يُخيل إليّ،
خدر لذيذ تسرب ليدي حين التقطت الفرشاه
فاستسلمت له، بدأت الخطوط المنحنية تتسارع، الألوان تتشابك،

الملامح تضتح، يدي لا تتوقف عن العمل، عقلي ثمل، وقلبي يقظ، متاهة جميلة أقع بداخلها كلما شرعت في رسم لوحة ما.

عصير الكتب
غَوْث

تنفست اللوحة أمامي بالحياة، عكست ملامح وسيمة لرجل ينظر إلي نظرة تحمل كل معاني الرقة، ينظر بعينين تشعان ذكاءً، أحببت ذقنه النامية فوق فكه العريض، كنت أتطلع إليه بإعجاب وكأنما لست أنا من اخترت ملامحه، ولوهلة خُيل لعقلي وكأنه حقيقي ينظر إليّ بتمعن وكأنه يتفحصني هو الآخر، وبطريقة مضحكة شعرت بخجل يدعو إلى السخرية،

فانتقلت ببصري إلى الطفل الذي يحمله بين ذراعيه، لتقسط الفرشاة والألوان المائية من يدي وأنا أقف كالممسوسة أنظر للطفل بأنفاس ثقيلة وقلب جُنت

عصير الكتب

نبضاته، كاد عقلي يطير من فرط الغضب كان هو نفسه بعينيه الكرويتين وخدوده الممتلئة، كان أحد الطفلين.

أخذ صدري يعلو ويهبط وكأنما انتهيت من العدو لتوي، وضعت يدي على صدري في محاولة بائسة لتنظيم أنفاسي، فيما كانت عيني مثبتة فوقه وكأن به سحر ما، سحبت الكرسي الذي كنت أجلس فوق للخلف قليلًا كأنما أخشى الطفل بحق، جلست بعد أن خارت قواي ولم تعد قدماي قادرتين على حملي، بشكل أو بآخر هناك خطب ما بات هذا واضحًا وضوح

عصير الكتب

الشمس، ملت بجزعي إلى الأمام لألتقط قدح الشاي فاسترعاني أنه فارغ،

هرعت إلى المطبع وقد قررت إعداد فنجان قهوة هذه المرة، هنالك أمور غريبة تحدث معي ومنذ الحادث تحديدًا، الخيال بالمشفى وقوله الغامض لي بعدم الذهاب،

الطفلان بلا شك لهما علاقة بالأمر، اللوحة والطفل الذي لم أقصد رسمه، ولكن ما العلاقة بين كل هذا؟ خرج عقلي من دوامته حين أصدرت غلاية الماء صوت (تكة) معلنة عن انتهاء مهمتها، بدأت بصب الماء بعد

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

أن عدلت عن قراري ثانية وقمت بإعداد كوب شاي فلا يوجد مزاج الآن يسمح لي بإعداد القهوة.

حاملة قدح الشاي عدت إلى الغرفة، وعقلي واقع داخل عالم من الأمور المبهمة أحاول ربطها ببعضها،

جلست فوق فراشي متربعة وعيني مثبتة فوق اللوحة أمامي أرتشف من الشاي، الحادثة أثرت على عقلي بشكل بشكل أو بآخر، ولكن المؤكد أن هناك أحد غامض يريد مني شيئًا ما، أحدق في اللوحة وأتساءل لمَ رسمت أحد الطفلين وليس كليهما؟ أرتشف من الشاي، لمَ أنا بالذات التي يحدث معها هذا؟ لمَ أنا

غَوْث

من يوجد شخص يريد مني شيئًا بعينه، انتصبت بجلستي ووقف عقلي عند نقطة لم أحسب لها حسابًا من قبل، تُرى هل الرجل الذي أصابني بالحادثة له علاقة بالأمر؟

هل أصابه مكروه أو لقي حتفه بعد أن ترك طفلين بحاجة للرعاية؟

تألم قلبي وجعًا لهذا الخاطر، لا تشتهي روحي بأيما طريقة أن أكون سببًا في يُتم طفلين بريئين وإن كنت أنا بريئة، قفزت من فراشي وقد عقدت العزم بأن أتوجه

عصير الكتب
غَوْث

رأسًا إلى المشفى، لأستعلم عن حالته المرضية أو أعرف عنوانه إن كان قد خرج.

لم تكمل يدي طريقها لفتح صوان الملابس إذ أبصرت الساعة وكانت قد تجاوزت منتصف الليل،

إنقلبت على أعقابي بفتور ونمت على جنبي أضم قدمي إلى صدري وعيناي معلقة على اللوحة أمامي، ينظر الطفل نحوي نظرة بريئة مغلفة بالسخرية، وقع في نفسي أنه يسخر من فشلي في معرفة أي حقيقة يكونها ! !

عصير الكتب.
غَوْث

أما الرجل الذي كان يحمله –والذي رجحت أنه والده على الأغلب– كانت نظرته ناعمة ترتدي رداء الشموخ، زاد من وسامته تلك الشامة فوق جبينه، حاولت تفسير سبب رسمي لها بهذا الشكل الذي بدا حقيقًا إلى حد كبير كما لو أنني رأيت أحدًا يحمل شامة مثلها من قبل، ولكني لم أوفق لإجابة،

خاصة وأن الشامات لم تكن يومًا من اهتماماتي، أزحم التفكير عقلي، أتعب روحي، وأثقل جفوني فألقيت بنفسي إلى عالم الأحلام.

عصير الكتب.
غَوْث

ما إن تفشت أشعة الشمس بذرات الهواء حتى كنت خلف مقود سيارة أمي التي استمادت في محاولتها لإقناعي أن أتناول الإفطار أولًا، ولكني بالرغم من توسلاتها سأذهب إلى المشفى وسيتضح حينها كل شيء، ضغطت بقدمي بغتة على مكبس الفرامل، في لحظة كان كل شيء مغايرًا تمامًا للواقع، الطريق أمامي حال إلى ظلال لأشخاص- دون أشخاص- كثيرة تملأه فمنعتني من المضيّ قدمًا، جال بخاطري أنها لابد من صنع عقلي ليس إلا، ولابد لها أن تختفي حالما أقود السيارة كرة أخرى ولكني لم أفعل، تذكرت

عصير الكتب
غَوْث

قول الظل لي" قد يبدو لكِ الصعب هو أسهل خيار" وقع في نفسي بطريقة ما أن تجاهلي لها الآن هو أسهل الحلول، ومواجهتها ستكون بداية الطريق، بشجاعة مباغتة فتحت باب السيارة أترجل منها لأتقدم ناحية أحد هذه الظلال، التفت نحوي بجسده كاملًا فتبعته الظلال خلفه بنفس الحركة، تمرّد صوتي عليّ وأبى الخروج، تشتت تفكيري ولم أعرف مايجب عليّ قوله، بيد أن حيرتي لم تدم طويلا وحلت محلها الدهشة حين امتزجت الظلال معًا في لمح البصر لترتمي على أرض الطريق الرمادية أمامي وبدأ يتشكل الكيان

عصير الكتب

الأسود الكبير ليكون أرقامًا، أرقام حفرت بذاكرتي وكأنما أصبحت فجأة من فولاذ.

نظرت للأرقام بكثير من الحيرة وقدر لا بأس به من اليأس وقلت بصوت عالٍ وكأنما لا أعرف أين الجهة التى أود لصوتي أن يصلها:

– ما معنى هذا؟!

تلاشت نبرتي في الهواء تمامًا كما تبددت الظلال من فوق الأرض، تلفّتُ حولي بجزع أبحث عن أيًا منها فلم أجد سوى نظرات المارة الذين تبدوا من العدم

عصير الكتب
غَوْث

يطالعونني بنظرات كتلك التي ينظر بها المرأ إلى شخص مجنون فقد عقله.

بخطوات متحفزة دلفت إلى المشفى، ونبضات قلبي يزداد وطأها ليتردد صداها ألمًا بصدغي، وابلًا من الأسئلة عن كنه الظلال وقع فوق رأسي وأيًا منها لا أدري لها إجابة، توجهت رأسًا إلى الاستقبال أدعو داخلي أن ينجيني الله مما وقعت فيه، سألت الموظفة الحسناء عن الشخص الذي حُجز معي في نفس الحادث، سألتني بنبرة متكلفة:

– ما اسم المريض آنستي؟

تلجلج عقلي وانعقد لساني إذ لم يسبق لي أن سألت عن اسمه، اعتمل السخط بصدري فبأي غباء أذهب للبحث عن شخص لم أتكلف عناء أن أسأل والدتي عن اسمه، بصوت مضطرب أجبتها:

- سأخبركِ اسمي وأنتِ لابد وأن تجدي اسمه في الملفات لديكم.

نظرت إليّ شزرًا حاولت إخفاء اشمئزازها خلف رداء اللامبالاة لملامحها الجامدة فمالبثت أن قالت بنبرة لم تنجح بإخفاء السخط من بين طياتها:

عصير الكتب
غَوْث

- سأحاول، ماهو اسمك آنستي؟

وقفت دقائق أنقر بأصابعي فوق الرخامة أمامي، أنظر إليها بقلق يحوم بصدري ممتزجًا بالترقب، أتى صوتها كنجاة من وحل الانتظار العفن:

- إياد محي الدين، السن ثلاثون عامًا، أُصيب بكسر في الجمجمة، ونزيف في المخ فأصيب بفقدان كلي للذاكرة على إثره.

بروح متألمة وقلب دامي سألتها بنبرة مكلومة:

- هل لكِ أن تدليني على غرفته؟

كسا وجهها رداء البرود مرة أخرى:

– لقد ذهب آنستي يوم الثلاثاء الموافق ٣٠ يوليو.

اعتصرت يدي بغضب، لقد ذهب أمس لو أنني تمكنت من المجيء قبل هذا، لو كان بقلبي ذرة رحمة واحدة لسألت عن الرجل المسكين صاحب الحظ السيء بين كلينا لكنت لحقته، كيف لي أن أكون بكل هذه الأنانية؟

بإلحاح سألتها:

– هل لي بعنوان منزله؟

عصير الكتب
غَوْث

حدقت بالشاشة أمامها لثوان ثم قالت:

- لا يوجد هنا سوى رقم هاتفه.

فررت من المشفى ما إن أملتني رقمه وكأنما كنت على موعد أخشى أن يفوتني، بتلهف جلست خلف المقود، ضربت زر الاتصال فتداعت جبال الحماس التي بنيتها لتوي حين أتاني صوت المسجل المثير للسخط يخبرني أن الهاتف مغلق، ضربت المقود أمامي بحنق يغلي بحلقي فاستشعرت مرارة طعمه،

عصير الكتب
غَوْث

زفرت بضيق وأنا أفكر بما آل إليه حاله، ووقع في نفسي أنه لابد هو ذلك الرجل وصاحب الخيال، لابد وأن المسكين بحاجة لمساعدتي، طفت صورة الطفل بذهني فأعتصرت قلبي وغزة ألم، لابد أن الطفل المسكين بحاجة للعناية من الممكن أن تكون والدته متوفاه، حاولت الاتصال مرارًا وتكرارًا لتأتيني نفس الإجابة الخرقاء، أسند رأسي على عجلة القيادة بإحباط شديد، تمنيت لو كانت زيارتي هذه أكثر نفعًا، تنهدت وأنا أرفع شاشة الهاتف أمامي كي أعيد المحاولة كرة أخرى، تجمد إصبعي قبل أن أضغط زر

عصير الكتب
غَوْث

الاتصال حين أبصرت الأرقام تتغير فجأة أمام عيني الفزعة، انسحبت أنفاسي حين أدركت أنها تحولت لنفس الأرقام التي رُسمت أمامي من الظل، والتي أحفظها عن ظهر قلب.

دلفت المنزل بخطى متعجلة، ألقيت السلام بسرعة على أمي التى كانت تطلع إليّ بحزن يشوبه الغضب، تجنبت المواجهة وولجت حجرتي قبل أن أهوي على المقعد أمام الحاسوب، أخذت أنقر على لوحة المفاتيح أمامي بعصبية بعد أن فتحت موقع التواصل الاجتماعي الشهير (الفيسبوك) كتبت اسمه الثلاثي

عصير الكتب

بقائمة البحث، توقفت أنفاسي واعتصرت عيني بإحباط عندما رأيت الكثيرين ممن يحملون نفس الاسم، ابتلعت اليأس، شحذت الهمة من منبع الفضول داخلي، وأخذت أدلف لحساب كل من له نفس الاسم لتأتيني أخباره الصافعة حين أدرك أنه ليس الشخص الذي أبحث عنه، فإما صاحب الحساب قد توفاه اللّه، أو كان أصغر أو أكبر سنًا بفارق لا يستهان به،

بل وحتى وجدت من بينهم نساء قمن بتسمية حساباتهم باسماء أزواجهم.

حاولت في كافة وسائل التواصل الاجتماعي وكأنما يد خفية قد أزالته من الوجود!!

أسندت ظهري إلى الكرسي خلفي بتعب، وخيبة الأمل تنهش عظامي نهشًا، غزا صدغي ألم مفاجئ فأمسكت برأسي أحاول السيطرة على دقات الألم به، يجب أن أتناول قهوتي فلم أتناولها بعد، انشق باب الحجرة عن أمي التي دخلت بعصبية مكتومة،

وقالت بصوت هامس فيما تغلق الباب خلفها:

- أي فتاة مجنونة أنتِ؟

ببرود مخالف لما يعتمل بصدري، وأظنه برود من فقد الأمل:

- ماذا هناك يا أمي؟

قالت وهي تجلس على حافة الفراش مقابلتي يأكلها الغيظ:

- أتسأليني أنا ماذا هناك؟ ألا تستشعرين غرابة أفعالك تلك؟ لم يمضي على فكك للجبيرة سوى أيام معدودات وها أنتِ تتجولين هنا وهناك، وها قد انصرم

عصير الكتب
غَوْث

النهار وحضرتك لم تخرجي من غرفتك منذ ساعات لتتناولي شيئًا.

مسدت عيناي بإرهاق، قلت بنبرة هادئة محاولة التخفيف من حدة الموقف:

- لا تقلقي أمي سأتناول الطعام حالما أشعر بالجوع، أما الآن فجسدي بحاجة لكوب قهوة.

كتمت غضبها في محاولة فاشلة،

وأردفت بصوت يُشع عصبية:

عصير الكتب

– وأصدقائكِ لمَ لا تجيبين على اتصالاتهم؟ لمَ تودين إقلاقهم عليكِ؟ ليندا جاءت لزيارتك دونما موعد وكنتِ أنتِ بالخارج، فذهبت لعملها بعدما انتظرتك مطولا وحضرتك لا تلقين بالا باتصالاتنا.

لم تلتقط أنفاسها وتابعت بحنق:

– وإن لم تكوني بمعرض اللوحات فأين كنتِ إذن..

واحد خمسة اثنان خمسة.

انتصبت في جلستي أرهف السمع لحديثها، لم أتمالك نفسي إلا وجدتني أفتح عيناي على آخرهما وكأنني

أسمع منهما لا من أذني، جمدت الصدمة جسدي وكأنها ألقتني داخل دوامة أخذتني إلى عالم آخر...

إنها تهتف بنفس الأرقام!

لاحظت فجأة أنها أنهت حديثها وأخذت تحدق بي بتعجب ممزوج بالغضب، سألتها بخفوت:

- ماذا قلتِ لتوكِ يا أمي؟

رأيت التعجب يتنحى جانبًا ليحل الغضب جُل نظراتها:

عصير الكتب

– أقول إن المسكينة أخبرتني أنها وفؤاد قد هاتفاكي فوق الألف مرة.

شحذت نفسًا عميقًا ثم زفرته ذرات حيرة وشك، دق ألم الصداع صدغي بعنف، أسمع أمي تنطق الأرقام دون أن تنطقها حقيقة، خيالات أخرى لا شك، أيقنت أنه لابد من وجود دلالة لهذه الأرقام، لابد من أنها ستأخذني إلى ما أبحث عنه.

قلبت عيني ونظرت لأمي التي ظهرت فجأة أمام نظري وكأنما قد اختفت من الأساس!

بنبرة تقطر رجاءً قلت :

– هل لكِ أن تعدي لي كوبًا من قهوة؟

رنت إليّ وكأنما تتساءل أيه فتاة مجنونة أصبحت،
ولكن سرعان مارقت ملامحها وبحنان أجابت :

– بالطبع حبيبتي وأرجو منكِ أن تجيبي على
أصدقائك فهم جد قلقون عليكِ.

رمقتها وهي تخرج من الغرفة ثم فتشت في حقيبتى عن
الهاتف، وجدت الكثير من المكالمات الفائتة منهما
على حق،

عصير الكتب
غَوْث

نويت أن أُهاتف ليندا أطمئنها على حالي ولأطمن أنا أيضا على حال المعرض فهما العاملان عليه في غيابي وكذلك في حضوري، ولكني تراجعت حين لمحت اسم (إياد) في قائمة المكالمات الواردة ضغطت على الرقم كي أعيد الكرة وأحاول الاتصال به، لتصفعني الأرقام المبهمة مرة أخرى على وجهي لتعيدني إلى دوامة الحيرة التي تم إلقائي بها،

رميت الهاتف وقد نسيت ليندا وفؤاد ومعرض اللوحات وكل شيء عدا الأرقام، توجهت رأسًا إلى مكتبة والدي التي لا ألجها إلا حين يتعسف علي فهم

عصير الكتب
غَوْث

شيء ما، وقفت بمنتصفها حائرة أقلب عيناي بين الأرفف، أشعر وكان الكتب تنظر إلي بعدم فهم، وضعت يدي على خصري وكأني على وشك الخوض في حرب أجهل فيها منافسي!

الحقيقة الآن غير قابلة للنقاش إن لهذه الأرقام دلالة ويجب علي الآن الوصول إليها، وأخيرًا وبعد أن لفحت فنجان القهوة الذي أعدته لي أمي بحرفيه تامة، وجدت رفًا يحمل كتبًا تتحدث عن علم الأعداد" numerology "

جلست فوق أرض الغرفة، ورحت أفتح الكتب الواحد تلو الآخر، وضعتها جميعًا أمامي أنظر إليها ببلاهة فكنت كمن يحاول البحث في كومة قش عن إبرة يجهل إن كانت موجودة من الأساس أم لا!

مرت ساعات لا أستطيع تحديدها على وجه الدقة ولكني عرفت أنها كانت كثيرة من التنميل الذي بدأ يدب بجسدى بطريقة مستفزة إثر الوضعيه التي كنت أجلس بها، كانت قراءاتي كنحلة تهبط على كل زهرة؛ لتنهل منها بعضًا من رحيقها ثم سرعان ما تنتقل لأخرى دون أن يروي ظمأها شيء!

في البداية تملكتني العزيمة واحتّل الأمل جزءً كبيرًا من نفسي حين أدركت أن هذا العلم يُظهر أن هناك علاقة ما بين الأرقام والأشياء الحية.. حاولت ربط الأرقام بكل شيء ظهر لي بين طيات الكتب.. حولتها إلى حروف من مختلف اللغات، حولتها إلى حروف عربية ويابانيه بل وأيضًا هندية.. رتبت الحروف المقابلة لكل رقم بنفس ترتيب الأرقام ثم حاولت مرة أخرى بعكس الترتيب، ولكن كانت كل محاولاتي بلا أدنى فائدة، حيث كانت الكلمات الناتجة لا تعي شيئًا على

الإطلاق، بل كانت مثيرة للضحك الذي أثار سخطي من محاولاتي البائسة.

تمددت على أرض الغرفة وقد بدأ التعب يتملك مني بعد أن جهد كل من عقلي وعيناي، خارت قوى جسدي، فأغلقت عيناي أهديهما قليلًا من الراحة لتسقطا في بئر الأحلام بكل رحب وسرور.

أبصرت الظل أمامي، كان واحدًا فقط هذه المرة بلا أية نسخ أخرى منه، هذه المرة كنت أدرك أنه مجرد حلم، ولكني تفاجأت حين وجدت نفسي أهرع إليه متسائلة:

عصير الكتب
غَوْث

– مادلالة الأرقام، اخبرني؟

أجفلت حين وجدته يظهر ويختفي وكأنما يُعرض على شاشه تلفاز تنقطع عنه الترددات وتعود مرة أخرى!

كانت ملامحه البشرية تظهر وتختفي بسرعة محمومة، ولكن ماسلب قلبي كانت عيناه، عيناه الواسعتين التي تعكسان الكثير من الذكاء!

خطوت خطوة للخلف وأنا أتذكر نظرات رجل اللوحة الوسيم! حاولت عبثًا إغلاق فمي الذي إنفرج رغمًا عني، كففت عن المحاولة حين سبقني نحو حديقة

عصير الكتب
غَوْث

كبيرة تحيط فيلا ضخمة ظهرت إلى جوارنا فجأة من العدم، هرولت وراءه وبشجاعه تعجبت من أين واتتني تساءلت :

- من أنت؟

لم يجب وبدأت الترددات الواهيه تنقطع عنه ليعود إلى سيرته الأولى ظلًا لرجل يخبرني قلبي أنه يحتاج مني المساعدة.. دلف إلى الفيلا التي كانت لوحة للجمال، إلتفت إليّ وهو يقف في منتصف الصالة وقد استطعت أن أرسم بخيالي عينيه في موضعهما السليم،

عصير الكتب

أتاني صوته الرقيق الذي يرسل لقلبي مشاعر الاطمئنان نحوه:

- أحيانًا التفنن في الذكاء يكون هو الغباء بعينه.

ران عليّ الصمت للحظة أنتظر منه أن يكمل حديثه ولكنه لم يفعل، سألته وقد سمعت صوتي مضطربًا:

- ماذا تقصد ؟!

بدأت ملامحه تظهر وتختفي كأنما كان عقلي عاجزًا عن تمثيله بوضوح أمامي،

وقال ينبرة تشي بشيء من الجدية:

عصير الكتب

"لم يميزنا الله بموهبة لمجرد تسلية أوقاتنا، بل لثغرة معينه وجب علينا سدها"

اختفى من أمامي كليًا، لأبقى وحيدة داخل فيلا واسعة كلاسيكية إلى حد كبير يتوسطها سلم ضخم مفروش بسجاد غاية في الأناقة ثم...

عصير الكتب

٣

الظل المحترق

باعدتُ ما بين جفناي وصوت أمي يتلاعب بعقلي مابين النوم واليقظة.

– عزيزتي إن ليندا وفؤاد ينتظرانكِ بالخارج.

فركت عيني الناعستين وحواسي تنادي بعضها كي تعود إلى الواقع، تطلعت حولي بتعجب وسألتها بدهشة:

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

- كيف أتيتُ إلى غرفتي لقد كنت بالمكتبة؟

أجابت بنفاذ صبر وهي تخرج من الغرفة :

- أنا أتيتُ بكِ.

مسدتُ عيني أزيح ماتبقي من أثار نعاس متعلقة بأهدابهما ووقفت بتثاقل ليعتريني دوار خفيف إثر نهوضي المفاجئ لململت شتات نفسي وتوجهت للحمام الملحق بغرفتي كي أدع المياه تتغلغل داخل فروة رأسي علها تخفف من الصراع داخلها،

وتُهدئ من ثورة أفكاري المتناثرة، خرجت سريعًا بعد أن ارتديت ما وصلت إليه يداي ثم خرجت لاستقبال ليندا التي هرولت ناحيتي بقامتها الهيفاء، وشعرها الأشقر يتطاير خلفها، لتلقي فوق وجهي وابلًا من القبلات فيما تصف سعادتها برؤيتي خارج المشفي إذ كانت مشاهدتي داخلها تأكل قلبها على حد قولها، ابتسمت لها بامتنان صادق وأعتراني شوق مفاجئ لابتسامتها البريئة، نظرت إلى فؤاد من فوق كتفها ألقيت عليه التحيه

ليجيب بتلعثم يرافقه منذ صباه:

- ل ل لقد قلقنا ع ع عليكِ فأنت لا تجيبين على الهاتف

أشرت لهما بالجلوس شاردة الزهن، لا أدري إن كان إخبارهما ما يحدث معي هو الحق، نظرت إلى ليندا فجاءت ابتسامتها المرحة كقاطع لحيرتي التي ما لبثت أن نشأت، ووقع في نفسي أنهما حتى وإن لم يصدقاني فهما أبدًا لن يجرحا شعوري، وخصوصًا فؤاد الرجل ذو قلب الطفل، أعرف أنه صديق مخلص

ومهما قلت له سيصدقني دون تفكير بل وحتى سيساعدني للوصول إلى إياد بمجرد طلب هذا منه.

عصير الكتب
غَوْث

أفرك أصابعي بتوتر ناظرة لكؤوس العصير فوق الطاولة أمامي، أتاني صوتليندا يحمل قلقًا كان باديًا على وجهها:

- وكأنكِ تودين إخبارنا شيء ما أليس كذلك؟

نظرت إليها بأعين مبتسمة، دائمًا ماتفهمني دون أن ألجأ للحديث، وكأن كلماتها كانت البداية لفك بكرة الخيط، أخذت أقص عليهما كل شيء بدئًا من حادث المشفى وانتهاءً بحادثة الأرقام، لم أخبرهما بحلم الأمس فمكان ما بقلبي كان يدرك أن عقلي هو من

حاول جمع الأحداث ليبثها جميعًا داخل حلم بعالم اللاواعي.

وكأن حملًا ثقيلًا قد تنحنح بعيدًا عن صدري ما إن انتهيت من سرد الأحداث، وهو ماجعلني أتنهدت براحة ثم تطلعت إليهما بترقب كي أرى أثر حديثي عليهما، كانت ليندا تنظر نحوي ببلاهة وتعبير قلق على وجهها جليًا وكأنما تتشكك بقواي العقلية، أما فؤاد فكان أكثر منها حيرة وحال بياض وجهه إلى لون حبة الكرز، فأزدردت ريقي بخجل لم أتوقع أبدًا ردة

عصير الكتب
غَوْث

فعلهما، خيم علينا الصمت كضيف ثقيل لتطرده ليندا بنبرة جاهدت كي تضفي عليها المرح:

– لا تضعي هذه الأشياء في تفكيرك يا فريدة، فلابد أنها مضاعفات نفسية إثر صدمة الحادث التي تعرضتي لها.

أومأ فؤاد برأسه مؤيدًا لحديثها، لأجيب بعناد من لايجد من يصدقه:

– أقول لكما أن هذا الرجل يحتاج لمساعدتي، ماذا إن كان هذا حقًا؟ والرجل المسكين لا يجد من يساعده في

عصير الكتب

ظروفه هذه، ماذا إن كان الطفل الذي رسمته هو ابنه ويحتاج إلى مساعدتي؟!

عقب فؤاد ضاحكًا:

– ل ل لابد وأنكِ مسحورة بسحر خاص إ إذن؟

كانت مجرد كلمة ألقاها بسخرية، إلا أنها هزت كياني بعنف وكأني وقعت من علّ فجأة،

تردد الصوت الرقيق بأذني وكأنما كان صدى صوت بعيد.

عصير الكتب

"لم يميزنا الله بموهبة لمجرد تسلية أوقاتنا، بل لثغرة معينة وجب علينا سدها"

خرج صوتي هامسًا وكأنما أحدث نفسي:

- الرسم.

علقت نظري على باب حجرتي أريد أن أغبر أسوارها لأرسم مايحلو لي لعلها الطريقة!

أتى صوت فؤاد خجلًا:

- آآسف لم أقصد إ إ إزعاجك.

عصير الكتب
غَوْث

نظرت إليه مبتسمة بتلطف، لا يدري أنه فضلًا عن قلبه الأبيض الذي لا أتمكن من الحزن منه، كان قد أعاد إليّ شيئًا من التركيز.

أجبته بصدق:

- أبدًا، لا عليك.

لم أسمع شيئًا من باقي الحوار الذي انضمت إليه أمي، اكتفيت بالنظر إليهم وإلقاء ابتسامة مجاملة من حين لآخر، أرمق عقارب الساعة أتابع تقدمها بين الفينه والأخرى،

عصير الكتب
غَوْث

أربت بأصابعي فوق قدمي التي ما انفكت عن حركتها المتوترة، حتى هدأت نفسي ما إن استأذنا للانصراف، بادلتهم الوداع قبل أن أنطلق بحماس إلى غرفتي كمراهقة في موعد غرامي، وبسرعة محمومة وضعت اللوحة وجهزت الألوان ودون أن أعد الشاي، اتخذت وضعية الاستعداد أمام اللوحة، ثم ذوبت مع الألوان وفي فجوة عجيبة من عالم الخطوط المتعرجة وقعت، وداخل السكر ذهبت،

عصير الكتب

ثم رويدًا رويدًا عدت لواقعي بعد وقت أعجز عن تحديده، وقعت أنظاري على منزل عملاق تحيط به حديقة غنّاء!

تعالت مرارة الحنق بفمي، اشتعل صدري بنيران الخيبة، لأتنفس حطامه رزازًا، كانت مجرد رسمة لمنزل من وحي خيالي، كان مجرد منزلًا!!

كبحت دمعة كادت تقطر بعيني ثم ابتلعت المرارة بحلقي، هممت بالنهوض لأكافئ جسدي بقدح شاي وقد عزمت على ترك كل شيء خلفي، وعدم التركيز في هذه التراهات آخذة بنصيحة ليندا،

ألقيت نظرة خاطفة على اللوحة قبل أن أنهض لتذهب أنفاسي ويقفز قلبي بهلع فيخفق بجنون حين وقع بصري على لوحة ماثلة أمام حديقة البيت وقد دونت دون وعي مني الأرقام فوقها بخط يكاد يُرى،

إنها نفس الأرقام مرة أخرى!!

بجنون بدأ يعمل عقلي ثانيه، وأنفاسي تتسابق مع الزمن وكأنها تمد عقلي بجرعة مضاعفة من الأكسجين اللازم كي يعمل بحق،

فهرعت كالممسوسة لألتقط هاتفي وأنا أضحك بجزل مرددة:

أحيانًا يكون التفنن في الذكاء هو "الغباء بعينه"

دونت الأرقام (google maps) فتحت تطبيق بخانة البحث بأصابع مرتعشة وقلب متوجس ضغطت زر البحث، كانت ثانية انتظار من أنفاس متحشرجة بصدري الذي ماج بالقلق من الإحباط مرة أخرى، ظهرت النتائج أمامي كشربة ماء بعد ظمأ طويل، زفرت نفسًا طويلًا مرهقاً أخرجت معه كافة المشاعر السلبية العاملة بصدري ليحل محلها البشر والسرور، لم أمنع البسمة من أن تأخذ الجزء الأكبر من وجهي وأنا أنقل عنوان الشارع الذي ظهر على الشاشة

عصير الكتب

أمامي، هاتفني صوت داخلي بأنه الشارع الذي يقطن به المنزل، والذي لابد وأنه منزل إياد.

****

بجنون زُدت من سرعة محرك السيارة أنظر للمرآة من آن لأخر أتطلع إلى شيء أجهل ماهيته، قلبي مزدحم بكثير من المشاعر المختلطة المتضاربة، سعيدة حقًا بالوصول أخيرًا لعنوان منزله، جزلة بما أنجزته وسأنجزه فها أنا بصدد مساعدته بحق، بيد أن مسحة من الحيرة احتلت مكانها بقلبي، ماذا سأخبره؟ وهل يعلم أنه يظهر لي ويطلب المساعدة أم أن هذه أصبحت

عصير الكتب
غَوْث

ملكة مكتسبة لديّ وحسب؟ تناولت هاتفي أنظر لرقمه المغلق منذ الأزل وأتساءل إن كان قد فقد الذاكرة، فكيف سأبدأ الحديث معه، هل أقول أنا هنا بطلب من روحك بشكل ما لمساعدتك وأنقاذك من مرضك المؤقت؟!

عقدت حاجبي وأنا أفكر أنني سأكون شديدة البلاهة إذ ما نطق لساني بهذه الأمور بل ربما نعتتني بالجنون، لمعت ومضة أمل باهتة داخل عقلي حين فكرت أنه لربما يعلم بكل هذا وهو بانتظاري.

عصير الكتب

تنهدت وأنا أنظر إلى الطريق خلفي بالمرآة، كان ريفيًا بشكل جميل إذ بدأت الخضرة تغزو جانبي الطريق في مظهر خلاب آسر للب والفؤاد.

ما إن دلفت بالسيارة للشارع، وحين لم أجد سوى منزل واحد بنهايته على امتداد الخضرة، حتى طفا إلى ذهني خاطر لم أحسب له حساب، كيف سأخبره أني وجدت عنوانه؟!

هبطت من السيارة بترنح إثر نوبة صداع حادة فتكت برأسي إذ أجهدته في التفكير للبحث عن إجابة شافية فلم أجد بدًا سوى أن أخبره أنني توصلت إليه من

عصير الكتب

خلال المشفى ولكنها كانت كذبة مفضوحة للعيان، إذ لم يترك سوى هاتفه، ولكني عقدت العزم وليحدث ما يحدث.

خطوت ماتبقى من الطريق الخالي تتقاذفني الرياح إذ لم تجد لها عائقًا سواي، تباطأت خطواتي وندت عني شهقة مكتومة ما إن أبصرت المنزل المنشود، دق قلبي بعنف وثار داخل ضلوعي، المنزل محترق بالكامل!!

اجتزت الحديقة الفاقرة التي كانت يومًا غنّاء بمظاهر الحياة، أبعدت الباب الضخم بيدي التي طالها قدر لا بأس به من الغبار،

ولجت للداخل وأنا أفرك يدي في محاولة لإزالة ما علق بها، وداخلي يحاول مواساة قلبي الذي مال إلى ركن يبكي فشله لإيجاد سبيل الراحة، وما إن رفعت نظري استكشف المكان حولي حتى اهتزت الأرض من حولي ودبيب غريب يموج داخل رأسي لأرى المنزل المتفحم والمرشح بالسواد ينبض فجأة بالحياة ويزهو بالألوان، خطوت بذعر للخلف ووقع في نفسي أن هذه سيرته الأولى قبل اندلاع الحريق، إنها الفيلا التي رأيتها بمنامي! ظهر الظل بأحد الأركان وكأنما أراد مراقبتي في هذه اللحظة،

عصير الكتب

اندفعت ناحيته وأنا أتطلع حولي لأتفاجئ بطفل يعدو فوق درجات السلم ويضحك بجزل لينبثق باب غرفة ما بالطابق العلوي عن امرأة بدت ملامحها مرسومة بالطيبة، ركضت خلفه بسرعة أقل إثر امتلاء جسدها، هبطت السلم بينما اختبأ الطفل تحت أحد الكراسي، اقتربت منه المرأة كأنما لا تراه وانقضت عليه في نفس اللحظة التي ظهر بها طفل آخر يركض نحوهما لتمتزج ضحكاتهما الجزلة المترنمة، للحظة نسيت أنني ببيت محروق وكل ما أشاهده خيال

فطفرت بسمة فوق شفتي، انتقلت ببصري إلى الظل

وخلته يراقب المشهد لينتهد بوجع ! !

فجأة اختفا الطفلان، و اختفأت المرأة لأجد نفسي

وسط لون أحمر متوهج يندلع من جميع أنحاء المنزل،

كانت النيران تلتهم كل شيء بالمنزل لكن وياللعجب لم

أشعر بحرارتها بل إني لم أشعر بأيما خوف ولكن

وبطريقة غريبة شعرت بالألم الذي يكاد يفتك بالظل

وهو يتلوى أمامي وسط النار وكأنه يحترق بالفعل.

متدثرة أسفل لحافي، البرودة تكاد تنخر عظامي،

والحمى تغزو رأسي بشراسة،

انكبت أمي تضع فوقه الكمادات وتلقي بالطعام داخل فمي دون أن أتذوقه، إذ كنت في عالم آخر من الهلاوس التي لا تنتهي، عصيّة على عقلي إذ كانت لا تُفهم، تنافرها وعدم الترابط بينها جعل عقلي ينصهر تشتتا، الطفلان يضحكان لي بود داخل المنزل عينه، رجل الرسمة الوسيم صاحب العينين الواسعتين يجلس بأحد الأركان يتطلع إلى أوراق بيده لينظر نحوي بغتة وفي عينيه نظرة مستغيثة ينفطر لها قلبي قبل أن ينشق فمه عن صرخة دون أن يُفتح ويتردد داخلي صوته هامسًا متألمًا:

عصير الكتب

- أحتاج المساعدة.

وبهدوء مخيف يصعد الدرج العملاق بتؤدة، يلتفت ناظرًا إليّ بمرارة وحزن يموج بين نظراته، تنفرج شفتاه وكأنما يود قول شيء ما لتتدلع النيران فجأة من كل حدب وصوب ليتلاشى بين ألسنة النار.

****

تنازل الصداع عن تمسكه بصدغي جزئيًا، وذهبت الحمى بعد صراع دام طويلًا بين جسدي والمضادات الحيوية، بدأ جسدي يستعيد قوته ولكن بعد أن

عصير الكتب.
غَوْث

اتفقت والدتي وليندا على منعي من الذهاب إلى أي مكان وكان هذا ماينقصني.

ما إن سنحت لي الفرصة حتى أخذ عقلي يعمل بسرعة محمومة، محاولات مستميتة لربط الأمور ببعضها، الآن قادني الظل إلى منزل محترق،

ولكن لمَ لم أفكر أنه لربما الظل ليس رجل الحادث، لربما هو ظل رجل آخر أحترق منزله، رجل ذو أعين واسعة تقطر ذكاء، والطفلان لابد أنهما تضررا لهذا الحريق، حسنًا الأمر ليس بكل هذا التعقيد، استنتجت لهذا فما سبب إرهاقي سوى لكون أعصابي

عصير الكتب
غَوْث

تالفة، الآن وما يجب التركيز عليه هو المنزل، هو بداية الطريق كي أصل لصاحبه، وأرى ما يمكنني مساعدته به، ولكن ماذا بيدي الآن وكيف أبدأ؟

أمسكت برأسي الذي بدأ الصداع يعود إليه ثانية،

لتتردد جملة بعقلي "ميزنا الله بموهبة لنغلق ثغرة ما"

رفعت رأسي أنظر لركن الألوان أمامي، غاصت نظراتي داخل اللوحة البيضاء بنظرة خاوية، تجاهلت الإرهاق بجسدي ونهضت بتثاقل أحسست جسدي متخشبًا إذ كان ممددًا على الفراش منذ مدة، لابد وأن ينتهى كل هذا، تناولت اللوحة وخرجت من الحجرة بغيرما

عصير الكتب

هدف واضح لتقابلني زوجان من العيون المزعورة المترقبة يموج داخلها القلق ويتخبط، توجهت بالحديث إلى ليندا وقد عزمت الكذب فخرج صوتي مهزوزًا إثر شعوري بالذنب:

- ليندا هلا تأتين معي، أود الرسم (بالغاليري).

تراقصت ابتسامة مبهجة فوق شفتي أمي لتقول بسعادة:

- فكرة جيدة بنيتي.

علق فؤاد الذي ظهر من العدم أو هكذا خُيل إلي:

- ن ن ناوليني اللوحة سأوووصلكما.

هاجمني الشعور بالذنب مرة أخرى سرعان ما أخمدته عنوة، دلفت إلى سيارة فؤاد بجوار مقعده بينما كانت ليندا بالمقعد الخلفي تثرثر بحماس عن حُسن صنيعي وأن الرسم سيعيد إليّ شيئًا من البهجة، قطعت استرسالها في الحديث وأنا ألقن فؤاد عنوان المنزل المحروق كي نتجه إليه.

****

عصير الكتب

حاولت تثبيت اللوحة فوق الأثاث المتهالك تحت نظرات فؤاد وليندا المندهشة، تجاهلت نظراتهما نحوي وكأن بي جنة، وفيما كنت أهيء نفسي للغوص داخل دوامة جديدة من الألوان التى لا أظنها ستكون من الابتهاج في شيء وسط كل هذا السواد المحيط بنا، قاطعتني ليندا بحدة ممتزجة بالذعر:

– بالله عليكِ يافريدة إن ماتفعلينه هذا لهو الهراء بعينه، هيا اتركي كل هذا ودعينا نذهب من هنا إنني لجد خائفة.

عصير الكتب
غَوْث

رمقتها بشيء من الشفقة، لقد كانت تنتفض خوفًا وتطلع حولها بتوجس وكأنما ترى أشباحا في كل ركن،

لوهلة تملكتني رغبة بالضحك لمظهرها الذي بدا هستيريًا سرعان ماحل محلها الشفقة فقلت بنبرة لطيفة مشجعة:

– إن كنتِ خائفة يمكنكِ العودة مع فؤاد فأنا لا أخشى المكوث وحيدة هنا، لكنكِ لن تخبري أمي بشيء على كل حال أليس كذلك؟

عصير الكتب
غَوْث

بلعت ريقها لتقول بينما عيناها ترمشان:

– لا تهذى فنحن لن نتركك هنا بكل تأكيد، حسنًا أيًا كان هذا الجنون الذي تفعلينه فأرجوكِ أسرعي أود الذهاب من هنا.

نظرت لفؤاد الذي كان يرمق ليندا كاتماً ضحكته من الانفجار لكن ملامح وجهه المتقلصة أفضحته، ابتسمت له وأنا أعض شفتي لأمنع ضحكتي من الانفجار، أومأت لها برأسي وشرعت في الرسم وكعادتي أجهل ما أنا مقدمة على رسمه.

عصير الكتب

غَوْث

****

وقف ثلاثتنا نحدق في اللوحة التى استغرقت مني ساعات في الرسم تلقيت خلالها وابلًا لا بأس به من تقريع ليندا وتململ فؤاد، كانت اللوحة بسيطة على عكس ما كان وجع معصمي يُنبئ به، امرأة ريفية ملامحها مرسومة من الطيبة ذات ملامح قريبة للنفس إذ كانت نفس المرأة التي رأيتها في هذا المنزل من قبل، ولكن الجديد هو ذلك الرجل الذي يقف جوارها يرتدي جلبابًا بنفس اللون، ذو ملامح شرقية ينظر إلينا بابتسامة بلهاء واسعة كشفت عن صف أسنان حال

عصير الكتب
غَوْث

بياضها أصفرًا، وأخفى الشارب العملاق شفته العليا،

قطع تأملاتي لملامحه صوت ليندا المتسائل:

– هل تعرفين هذين الشخصين؟

قلت بتردد وأنا أشاركهم التأمل في اللوحة:

– لا هما من وحي خيالي ولكن لابد وأن لهما علاقة بالأمر.

علق فؤاد:

– أأأي أممر؟

عصير الكتب
غَوْث

أجبته موضحة:

- هذا المنزل سبق وأن رسمته والظل هو من أرشدني إليه خلال عنوانه..

بترت جملتي حين رأيت الظل فجأة من فوق كتف فؤاد وبطريقة ما شعرت بابتسامته المريرة، صاحت ليندا وقد كانت جوار أذني فأنتفض جسدي:

- بربكِ يافريدة كل هذا هراء إنها مجرد هلوسات على إثر الحادث هل تظنين حقًا أن رسوماتك خارقة لهذه

عصير الكتب.
غَوْث

الدرجة كي تقدم لك حلولًا سحرية لإنقاذ رجل أنتِ حتى لا ترين منه سوى ظل يطلب منك إنقاذه!

هممت بالرد عليها فيما تعالت الحيرة داخلي إذ أخبرني الجانب العقلاني أنها محقة كل الحق، حتى دخل علينا رجل بدون مقدمات ليصيح بصوت جهوري:

– من أنتم وماذا تفعلون هنا؟ هل أنتم أيضًا من أقارب إياد؟

إلتّفت رءوسنا الثلاثة نحوه، لتتسمر نظراتنا فوق وجهه الذي سبق ورسمته للتو فوق اللوحة بجوار المرأة،

انسحبت أنفاسي ودق قلبي بعنف لرؤيته ولذكره اسم إياد، إذن صاحب الحادث هو صاحب الظل بغيرما شك، سمعت ليندا تبتلع ريقها، بينما خرج صوت فؤاد بتلعثم مضاعف:

– م م ما الذي يحدث؟

لم أتفاجأ كثيرًا وإن كنت لم أتوقع حدوث مثل هذا،

لذا كنت أسرعهم في ردة الفعل إذ انسحبت بخفة أمام اللوحة كي يصبح جسدي حائلًا بينها وبين بصر الرجل،

قلت بثبات تعجبت له وكأنما كنت قد خططت لهذا المشهد:

- نعم نحن أقرباؤه.

لاحظ فؤاد ما أفعله فحمل اللوحة ليتبدى منها ظهرها، فامتلأ قلبي بالامتنان لصنيعه.

عصير الكتب.
غَوْث

تقدم الرجل نحونا في ابتهاج مبالغ، بلكنة ريفية قال:

- يا ألف أهلا وسهلًا، ولكن هل أنتم أقرباؤه الذين اشتروا هذا المنزل؟

نظرت إليّ ليندا بعدم فهم وقد كنت أشاركها عدم الفهم ذاته فأدركت هذا من نظرتي لها الأكثر ذهولا، فمالت برأسها نحوي لتهمس بأذني:

-أظن أن أمر رسومات حق.

ابتسم لها قلبي وأسعدني أنهما أخيرًا سيصدقانني

توجهت للرجل بالحديث مرة أخرى وزادت ثقتي إذ

أزاحت جملة ليندا من فوق صدري الكثير من الشك:

- لا نحن لا نستطيع أن نصل إليه،

فهاتفه مغلق، كما أننا لا ندري ماحدث لهذا المنزل

وأين هو إياد؟

اقترب الرجل أكثر وقد إكفهر وجهه وكسته الحيرة:

- كيف هذا وأنتم أقرباؤه؟

عاجله فؤاد الذي فاجأني برده:

عصير الكتب

- وأخرجني من مستنقع الحيرة

- ك ك ك كنا في بلاد غربية وجئنا منذ يومين.

أومأ الرجل رأسه بتفهم،

ليعلق بنبرة الواثق:

- نعم نعم أنتم أقرباؤه في الخليج إذن.

ضحكت ليندا بجزل وعلقت بمرح من أعجبته اللعبة:

- نعم نحن كذلك.

عصير الكتب.
غَوْث

٤

ما قبل اللقاء

بخطوات متعثرة، وعقول حائرة دلفنا ثلاثتنا إلى منزل الرجل البسيط ذو الأثاث البدائي، بعد أن أصر علينا لتناول الطعام بمنزله ورؤية زوجته التي كانت مربية سابقًا في هذا المنزل، اجتزنا ممرًا صغيرًا مؤدي إلى صالة متوسطة المساحة زينتها أريكة خشبية في أحد الأركان مقابلة لكرسيان صنعا من عسف النخل، جلسنا فوق الأريكة و كانت نظرات ليندا الفضولية مبهورة و مندهشة بمنظر البيت الذي أعادنا إلى حياة

عصير الكتب
غَوْث

الإنسان البدائية، حياة بسيطة غير متكلفة، حياة لا يوجد بها كثير من معالم الإبهار حتى بدت الأشياء المبهرة عادية!

انسحب الرجل الذي أخبرنا أن اسمه العم جلال لينادي زوجته السيدة بثينة كما أعلمنا، أقبلت علينا بوجه بشوش وملامح طيبة كما رأيتها من قبل ولكن بتجاعيد أكثر وجسد أضعف، رحبت بنا بفرح وسرور شديدين وكأنما كنا أقرباؤها هي، لاحظت نظرات الحيرة والتعجب بين فؤاد وليندا فطفت بسمة خفيفه

عصير الكتب

على زاوية فمي إذ أدركت تعجبهما لرؤية ملامحها المماثلة للوحة.

وعلى الصعيد الآخر لم يخف عني إمارات الاضطراب التي تملكت من السيدة بثينة فور أن أخبرها العم جلال بحماس أننا أقرباء إياد، فركت يديها ولمعت حبات العرق فوق جبهتها لتقول بحزن:

– لقد كنت مربية في منزل والده ثم أصبحت خادمة لهم بعدما كبروا.

عصير الكتب
غَوْث

سألتها بنبرة محايدة، وقد عزمت على الاستفادة القصوى من هذه الجلسة :

- هل لكِ أن تخبرينا ماحدث لهم؟

تبادلت نظرات سريعة مع زوجها لتجيب بنبرة هادئة :

- لقد أصبح المنزل ملك السيد إياد وزوجته بعد وفاة والديه، وقد تعرض المنزل لحريق منذ مدة يسيرة لذا انتقلوا للعيش بعيدًا

عصير الكتب
غَوْث

بعد ستر اللّه إذ لم يكن أحد بالمنزل أثناء اندلاع الحريق.

تذكرت مشهد الظل بين النيران وهو يتألم فسألتها ثانية علّ ذاكرتها خانتها:

– هل أنتِ متأكدة أنه لم يكن هناك أحد أثناء الحريق؟

أجابت بسرعة محموعة حسبتها خوفًا على أفراد الأسرة من هذا الخاطر:

- لا لا لم يكن هناك أي أحد، فقد كان السيد إياد بأحد المؤتمرات الطبية، وزوجته وابنتهما خارج المنزل

أما أنا وباقي الخدم كنا بأجازة أهدتها لنا السيدة جهاد.

سألها فؤاد:

- ه ه هل توصل أحد لسبب الحريق؟

زادت حبات العرق فوق جبهتها:

- قيل أنه حادث إثر تسرب الغاز.

عصير الكتب
غَوْث

طلبت منها:

- اخبريني عنوانهم الجديد.

كست ملامحها سحابة من الحيرة

سرعان ما انزاحت وبدأت تملينا العنوان الذي دونته ليندا بخفة.

ارتفع صوت العم جلال الجهوري:

- هيا لتناول الطعام معًا ليكن بيننا عيش وملح.

****

عصير الكتب

وقفت سيارة فؤاد أمام المنزل الذي حصلنا على عنوانه ، كان حديثًا وأكثر رونقًا من المنازل جواره، أخذنا ثلاثتنا نتطلع إليه بحيرة فما هي الخطوة القادمة ، قطعت ليندا الصمت بحماس :

– لا أصدق ما يحدث

سألني فؤاد دون النظر إليّ :

– ه ه ه هل أنتِ متأكدة أنه ر ر رجل المشفى الذي قام بالحادث معكِ؟

أجبته بإيجاز:

عصير الكتب
غَوْث

- إلى حد كبير.

هتفت ليندا من جديد:

- حسنًا وماذا الآن؟

أجبتها دون أن أحيد نظري من فوق المنزل:

- يجب أن أجد طريقة للدخول والتحدث إليه كي أعرف فيمَ يحتاجني.

قالت بعفوية:

- أخبريه أنكِ تودين الاطمئنان على حالته.

عصير الكتب
غَوْث

وضحت لها بنفاذ صبر:

- ليندا إنه بكل تأكيد لن يفهم كيف عثرت على عنوانه بالإضافة إلى أنه فاقد الذاكرة.

تقلصت ملامحها تأثرًا لحاله ومالت بجسدها للخلف تقلب الأمر برأسها قبل أن تقول:

- أنتِ محقة

علق فؤاد:

- أأأألا يوجد احتمال بأنه ينتظرك إإإذ يبعث إليك هذا الظل من آن لآخر.

أجبته بإعجاب من طريقة تفكيره التي أشبهت تفكيري إلى حد ما:

- حسنًا لقد فكرت بهذا الاحتمال من قبل ولكنه ضعيف إذ من الممكن أن يكون كل هذا لا يخص أحدًا غيري.

سألتني ليندا بعدم فهم.

- ما الذي تقصدينه؟

أجبتها وصوت الظل يتردد بحنايا عقلي:

عصير الكتب
غَوْث

- أقصد لابد أن موهبة الرسم لدي هي ما تطورت لهذا الحد كي أنقذ شخصًا بحاجة إليّ فأغلق ثغرة بصنيعي هذا.

رفعت ليندا حاجبيها الناعمين وعلقت:

- ماهذه الفلسفة المفاجئة؟

عاجلها فؤاد بتلعثم:

- حتى وإن وجدتي طريقة لدلوف المنزل، هل تعتقدين أنه سيصدق هذا وأنه بحاجة لمساعدتك أنت على وجه الخصوص؟

عصير الكتب
غَوْث

تنهدتُ:- هذا أيضًا لم أحسب له حساب.

اقتربت ليندا بجسدها للأمام وقالت كمن يعمل بمهمة جاسوسية بعدما تمثلت بالشخصية الخطرة على أفضل وجه.

- اتركي أمر دخول المنزل عليّ.

سألتها باندهاش لنبرتها المعتدة:

- ماذا ستفعلين؟

لمعت عيناها بمكر:

عصير الكتب
غَوْث

- كل ما هنالك أنني سأزور منزله، ثم أوفيكما ما تحتاجانه من معلومات.

سألتها:

- وكيف ستدخلين؟

مالت بجزعها للخلف قليلًا لتقول بابتسامة ثقة عريضة تزين وجهها:

- ستعرفان فيما بعد، ولكن الآن لنعود فقد تأخر الوقت.

****

عصير الكتب

غَوْث

ألقيت بجسدي على الفراش بإنهاك وتعب شديدين، ولكن الرضا لما آلت إليه الأمور إلى الآن قد تغلب على التعب، أغلقت جفناي باستسلام وبسمة امتنان مرتسمة فوق شفتيّ،

غدًا ستساعدني ليندا لإجادة طريقة أصل بها لهذا الإياد.

******

ما إن بزغ نور الصباح حتى أنطلقنا ثلاثتنا قاصدين منزل إياد، ليندا بسيارة فؤاد، وأنا وفؤاد نتبعها

عصير الكتب.
غَوْث

بسيارة أمي بعدما أصرّت هي على هذا لسبب ما في نفسها، وما إن وصلنا حتى ركنت سيارتها على جانب الطريق وطلبت منا من خلال الهاتف الوقوف بعيدًا وعدم التحرك من داخل السيارة، راقبناها من خلف زجاج السيارة وهي تتوجه للمنزل الذي فُتح بابه بعد دقة الجرس الثانية، تبادلت هي وأحد ما الحديث للحظات ثم دلفت المنزل.

حلّ الصمت ضيفًا ثقيلًا داخل السيارة، كانت عقارب الساعة تتقدم بالكاد كلما نظرت إليها بين الفينه والأخرى، رنت بنظري إلى فؤاد الذي تململ بجلسته،

عصير الكتب
غَوْث

رأيت بعينه لمعة أعرفها، لمعة تظهر كلما أتت ليندا بشيء مبهر له، سمعت صوتي يسأله بغتة:

- هل صارحتها؟

التفت إلي ورفّ رمشه حين أدرك مقصدي:

- ل ل ليس بعد.

أعرف حب فؤاد لليندا، يظن أنها لن تقبل به سوى كصديق لا لشيء سوى للعثمته، لا يدري أن طيبة قلبه تأثر لب ليندا وتراه كشخص نادر الوجود، أردفت محفزة:

- دع الخوف جانبًا الآن يا فؤاد واعترف لها بحبك.

كاد يعلق حتى أتى على مسامعنا صوت بوق سيارة فؤاد لتنطلق بها ليندا قبل أن نتبعها.

هيا اخبريني ماذا فعلتِ على وجه الدقة؟

سألتها وأنا أتخذ المقعد أمامها على طاولة بكافتريا قابلتنا على الطريق، أخذت في طرقعة أصابعها أمام عيني بطريقة مسرحية فأزحتها من أمامي بنفاذ صبر، لترتسم ابتسامة زاهية فوق محياها لتقول باعتزاز.

عصير الكتب

– كل ما في الأمر أنني طلبت كوب ماء إذ قمت بتأليف سيناريو بأنني مسافرة ولا أعرف الطريق وأحتاج لمن يدلني لوجهتي.

غمزت بطرف عينها وأردفت بحماس دبّ بفؤاد الذي أخذ ينظر إليها بإعجاب شديد:

– وأنتِ عزيزتي تعرفين ليندا حين تفتح حوار ما، رأيت وعرفت كل من بالمنزل السيد إياد وزوجته المتعجرفة وطفلته الجميلة.

عصير الكتب

- كيف حاله إياد؟" بترت جملتها بسؤالي " المتلهف، نظرت إليّ بتعجب رافعة حاجبيها إذ ارتعشت نبرة صوتي وأتى سؤالي حميميًا كما لو أنني أسأل عن أحد أصدقائي الودودين، فتر حماسها وحالت بعينيها لمحة حزن لتجيب بأسى:

- لم أكن أتوقع أن يكون هكذا، ولم أظن أن أجد روحه المعنوية متدنية لهذا الحد كونه فاقد الذاكرة، هل تدركين أنه كان يجلس بأحد الأركان لا يعي شيئًا مما يحدث حوله؟

ضغطت على يدها دون أن يخفى عني ملامح الضيق التى هبطت على وجه فؤاد قبل أن أسألها:

- إذن ما الذي فعلته كي أستطيع الذهاب إليه؟

أعادت خصلة من شعرها البني خلف أذنها ببهاء لتجيب بفخر من أخترع اختراعًا ما:

- زوجة الرجل تبحث عن رفيق له ليكن بصحبته دائمًا، هذه فرصتك يافتاة.

علق فؤاد لأول مرة:

- ولكككككن فريدة ليست ممرضة.

عصير الكتب
غَوْث

التفت إليه ليندا بكامل جسدها لتجيبه بحماس:

- لتكن ممرضة إذن.

أردفت وهي تنظر إلي بحماس يتقد بمقلتيها:

- أعتقد أن هذه هي الطريقة التي ستساعدينه بها فهو جد في حاجة لشخص جواره.

أجبتها بشرود:

- بطريقة ما أشعر أن الأمر أعمق من هذا.

علق فؤاد:

عصير الكتب

- أأنتِ ستساعدينه على عودة ذاكرته.

أكملت استنتاجه شاردة:

- من خلال ما سأرسمه بصحبته.

اضطرب خافقي وأنا أردف:

- هذا احتمال كبير.

علقت ليندا في خارج سياق حواري مع فؤاد:

– سوف تذهبين وتخبرينهم أنكِ رأيت الإعلان على الإنترنت ولكن يجب أن تسرعي قبل أن يسبقكِ أحد آخر.

انتصبت واقفة وكأن كلماتها لسعتني يجب أن أحظى على هذه المهنة، ليست مهنة تمريضه فحسب وإنما مهنته إعادة الذاكرة إليه..

ما هي إلا دقائق وكنت أنتظر أمام المنزل بقلب مضطرب

عصير الكتب
غَوْث

وعقل أعياه الإجهاد، أخذت أُعمله بكلمات ليندا التي ظلت تُلقنها لي كي لا أنسى ماسوف أُلقيه على مسامعهم، حُبست أنفاسي حين إنشق الباب عن رجل فاره الطول، أسمر البشرة، ذو ابتسامة منمقة حد الغثيان، تلقاني الإحباط إذ كان بعيد كل البعد عن إياد، أيعقل أن تكون ليندا عمياء لهذا الحد؟

"بمَ أساعدكِ آنستي؟"

ليست فقط ابتسامته المنمقة، وإنما حديثه أيضًا.

افتعلت ابتسامة أظنها ظهرت أكثر تكلفًا من ابتسامته

عصير الكتب

وأنا أُلقى ما لقنته لي ليندا وكأنما أقرأه من نشرة أخبار:

– لقد رأيتُ إعلانكم بخصوص الممرضة عبر الإنترنت وأنا هنا بخصوصه.

اتسعت ابتسامته أكثر فبدا لي أقرب لإنسان آلي وهو يجيب بسعادة مفتعلة:

– أهلا آنستي تفضلي وسوف أُخبر سيدتي بأمرك حالًا.

عصير الكتب.

قادني إلى حيث غرفة الاستقبال، ثم اختفى من أمام ناظري،

أدركت أنه خادم هنا وليس إياد بالطبع، ابتسمت بسخرية جراء غبائي، فكيف سيفتح هو لي الباب إن كان يبحث عن ممرضة ترافقه؟

راقبت المكان حولي بعين الفضول، كان منزلًا بسيطًا في أثاثه، راقيًا في تصميمه، اجتاحت جيوبي الأنفية عبق رائحة بدت فذة حد الاختناق، تطلعت حيث منبعها فرأيت امرأة رشيقة تتهادى في مشيتها نحوي، وقفت وأنا أتطلع لملابسها الضيقة حتى ظننت أنني أختنق

عصير الكتب
غَوْث

نيابة عنها، رأيت وجهها الممتلىء بمساحيق التجميل حتى بدت كدمية (باربي) وبدوت أنا جوارها كمسخ لا لون له ولا حياة، مدت يدها نحوي وهي تقول بكبرياء ملموس من حركاتها، منطوق به نظراتها:

– أهلا بكِ أنا مدام جهاد زوجة إياد.

وضعت يدي بيدها التي بدت فائقة النعومة مما جعل قشعريرة بسيطة تسري بجسدي، تُرى كم من المرات تستعمل هذه المرأة مستحضرات الترطيب؟

– أهلا بكِ سيدتي، أنا فريدة.

أجابت دون أن تجلس أو حتى تشير إليّ بالجلوس:

- إن حالة إياد جد عسيرة، لابد وأنكِ تعرفين هذا بحكم مجال عملك، وأنا لن أضيع وقتًا أكثر من هذا وسأوافق على تعيينك فليس لديّ أي شروط وما تحتاجينه من مرتب أنا موافقة عليه.

تقلصت معدتي حين قالت مجال عملك، وهزني التوتر إذ استرعى كلامها انتباهي إلى كوني جاهلة ما أنا مُقدمة عليه،

عصير الكتب
غَوْث

كنت تماما كأعمى يسلك أيًا من الطرق يجدها، أردفت حديثها حين قابلت صمتي:

– حسنًا يبدو أنكِ مستعدة لبدء العمل، سآخذك لغرفة إياد كي أعرفكِ له.

تمايلت أمامي بسيرها إذ ساعد حذاؤها ذو الكعب العالي على إظهار حركاتها بشكل أكثر فتنة، وقفت أمام باب إحدى الغرف وقبل أن تفتح الباب نظرت إليّ نظرة لم أفهمها لتقول بصوت غلفه الغموض:

– بالنسبة إلى الدواء فالخادمة فقط هي المسئوله عنه وليس أنتِ، هذا أمر منتهي.

٥

حياة جديدة

جُنت ضربات قلبي وتسارعت أنفاسي فيما كانت تفتح باب الغرفة، تطلعت داخلها بفضول مغلف بالريبة، اجتاحتني عاصفة شوق هوجاء حين أبصرته يجلس فوق إحدى الكنبات وكأنما كنت على علاقة قوية به، كان هو بشحمه ولحمه، رجل الرسمة الوسيم، وددت لو ينظر نحوي كي أرى نظرة عينيه الوديعة بيد أن عينيه كانتا مركزتين فوق نقطة ما على الأرض، وكأنه لم ينتبه لدلوفنا الغرفة بل وكأنه داخل عالم آخر من

عصير الكتب
غَوْث

الأساس، نادته زوجته ببرود وكأن الماثل أمامها شخص غريب عنها، ليرفع نظره ببطء إلى أن ثُبتت نظراته التائهة فوق وجهي، لم أجد سكون عينيه، راحت تلك الوداعة بهما، هالني أن أجد محل السكون نفور، ومحل الوداعة غضب، ثارت عيناه وأخذتا تطوفان أرجاء الغرفة بفزع، بدا كمن رأى شبحًا وأخذ جسده يتشنج ويضع يديه على أذنيه ويصرخ بعبارة واحدة: ليس مجددًا.. ليس مجددًا..

تخبط قلبي بين الحيرة والقلق، لمَ حدث له هذا بمجرد رؤيتي؟ نهشني القلق من أن يكون قد تذكر

عصير الكتب

الحادث وتذكر وجهي، تخشب جسدي وأنا أراقبهم من حولي، أتى الخادم الآلي وأخذ يُهدئ من روعه، واسترعاني برود زوجته التي ظلت تراقب المشهد بعيون زائر لا يمت له الأمر بصلة، وكأنني عُدت لوعيي فجأة اندفعت نحوه بخوف حقيقي،

وأخذت أُمسد على رأسه كالأطفال وأقرأ ما يجول بخاطري من آيات القرآن، فجأة أخذ يجول بأنظاره الملتاعة بين ثلاثتنا وبتوجس خرج سؤال بين شفتيه المرتعدتين:

- من أنتم؟

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

****

تناولت القهوة من الخادمة وعلى شفتي ابتسامة بلهاء جاهدت كي أبقيها مثلما اتفق، راقبتها وهي تختفي داخل إحدى الغرف وأنا أتساءل لمَ هي بالذات التي يجب أن تتولى أمر الأدوية؟ اهتّز فنجان القهوة بيدي إثر حديث المرأة المفاجئ:

– آمل ألا يكون ما حدث قد أثار قلقك.

غَوْث

رنت إليها وتمنيت مثلما تمنت، ولكن القلق كان قد سبقنا ونفذ عكس رغبتنا، سألتها وأنا أشعر كمن يجاهد بين أمواج الحيرة كي يصل لشط الاستيعاب:

– هل يحدث له مثل هذا دائمًا؟

رفعت الفنجان بأصابع مطلية لترتشف منه قبل أن تجيب ببرود يستفزني:

– ليس دائمًا ولكنه يحدث حينما يشعر بالقلق.

أخذت رشفة أخرى قبل أن تستكمل حديثها:

– لقد قطعنا شوطًا كبيرًا، فهو لم يكن يأتي بأي نشاط كان، تعلم الحديث من جديد، وبدأ بتعلم المشي ولكن الممرض الذي كان معه قد إعتذر عن العمل.

لم أستطع منع رعدة خوف من التسلل داخل جسدي، وإن إعتمل الحزن قلبي لحاله، ولكن كيف لي بالتعامل معه وأنا التي لم أتوقع أن يصل به الحال إلى هذا الحد؟ تعلم المشي والتحدث من جديد ألهذه الدرجة؟ أغمض عيني أُذكر نفسي أنه الشخص الذي طلب مني المساعدة، إذن فلابد وأنني قادرة على مد يد

العون له، سألتها بعد أن عقدت العزم على فعل جل ما بوسعي لاستعادة نظرة عينيه الوديعة:

- ألم يتذكر أيما شيء؟

هزت رأسها بأن لا، ورفعت الفنجان لفمها من جديد، إعتمل صدري بالسخط، من أين لها بكل هذا الجمود؟ أوليس هذا المسكين زوجها؟

رن جرس الباب والتفت أعناقنا نحو القادم نحونا، كان رجلًا وسيمًا يرتدي حلّة أنيقة وكأنما هو بصدد الذهاب لحفل ما، بالغ في وضع الجيل المثبت فوق

عصير الكتب
غَوْث

شعره وكذلك بوضع ال(برفان) تمامًا مثل السيدة التي اندفعت نحوه بحبور بالغ تقبله ببشر لم أكن أظن أن لمثلها شيء من المشاعر، خُيل إلي إنه لربما أخ لها أو قريب، لكنها ضربت بتوقعاتي عرض الحائط وهي تقدمه لي قائلة:

- هذا عدنان صديق إياد وصديقي أيضًا، هذه ممرضة إياد الجديدة يا عدنان.

رماني بابتسامة لزجة لم يُخفى عني نظرة الامتعاض التي حلت بعينيه وهو يمد يده نحوي قائلا:

عصير الكتب

عصير الكتب

- سررت بلقائك.

مددت يدي نحوه وأنا أخبره باسمي، سألتني جهاد إن كنت أحتاج شيئًا قبل أن يغادرا للعمل فسألتها بريبة وكأنني طفل تتركه أمه على قارعة الطريق:

- لم تخبريني كيف ستكون طبيعة عملي وساعات العمل.

تبادلت النظرات مع عدنان لتجيب برقة مفتعلة حسبتها تجملًا منها أمامه:

غَوْث

- مكتوب بالإعلان أننا بحاجة لمرض بالأربعة وعشرين ساعة وستكون له غرفة خاصة بالمنزل.

أدركت الخطأ الذي ارتكبته وحاولت تداركه وأنا أُمثل معرفتي لكل هذا موضحة:

- أعرف أعرف ولكني لم أحسب حساب أنني سأبدأ العمل من اليوم.

نطقت قسماتها بالتفهم فقالت قبل أن تتأبط ذراع عدنان للمغادرة:

عصير الكتب
غَوْث

– إذن اكتفي اليوم بهذا القدر وسأطلب من أم يوسف أن تُطلعكِ على غرفتك وغدا تباشرين العمل مباشرة.

وقفت أراقبها بعين الاستغراب،

كيف لهذه المرأة أن تكون مضطربة المشاعر هكذا، فبدلًا من أن تكون حزينة لحال زوجها، ها هي عيناها تُشعان فرحًا وهي تتحدث لهذا العدنان!

****

أخذتني أم يوسف لتُريني الغرفة التي ستصبح غرفتي، ولفت انتباهي أنها كانت بجوار غرفة إياد، بدت أم

عصير الكتب
غَوْث

يوسف قليلة الكلام جادة الملامح ذكرتني بوالدتي على الفور، تُرى كيف سأقنعها بترك المنزل لأيام لا يعلم عددها غير اللّه؟

انتابني الهم إذ كان مجرد النوم خارج المنزل هو المستحيل عينه، خرجت من الغرفة قبل حتى أن ألاحظ شيئًا منها لأجد نفسي أخطو نحو الغرفة المجاورة، طرقت الباب مرتين لتقول أم يوسف بإشفاق:

– يا سيدتي فلتدخلي مباشرة، فالسيد إياد لا يعي شيئًا مما يحدث حوله ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

عصير الكتب

غَوْث

عصير الكتب

زيلت جملتها بحركة شفاها التي تدل على الإشفاق ولا أعلم من الذي إخترع هذه الحركة،

ولكنني علمت في قرارة نفسي أنه وبالإضافة إلى مهمة إقناع أمي بهذا العمل فيوجد مهمة أخرى أكثر أهمية ألا وهي البحث عن فقدان الذاكرة وكيفية التعامل معه.

دلفت الغرفة ببطء وكنت أخشى أن يحدث لإياد شيء جديد جراء رؤيته لي، لكني رأيته ينظر إلي مبتسمًا..هل قلت مبتسمًا،

أتراجع عن هذا فلم يكن إياد وإنما الظل بجانبه..
رأيته مبتسمًا وإن لم أرى ملامحه!!

غلف الحزن قلبي وعششت الكآبة داخله، إنها المرة الأولى التي ألفق فيها كذبة كبيرة مثل هذه، ضغطت زر الجرس وأنا أتذكر ملامح أمي التي رُسمت بالقلق وهي تودعني بعدما أقنعتها بمساعدة ليندا أنني ذاهبة لمعرض بالخارج، ضربتني الحيرة حين فتح لي الخادم الباب ثم هرع للداخل دون أي حديث، ارتمت الحقيبة من يدي وباندفاع مماثل ركضت وراءه حيث

قادني لغرفة إياد، تسمرت عند باب الغرفة تاركة لعقلي فسحة كي يستوعب ما يحدث،

انتفض قلبي جراء صرخات إياد وهو يحاول التحرر من قبضته وقبضة الخادمة معا، تمثل الفزع شبحا أمامي حين أبصرت السكين بيديه، على خُطى التوجس تقدمت نحوه ببطء مخالف لثورته المندلعة، التقطت أذني بعضًا من بين كلماته الثائرة

"لا معنى لحياتي"

عصير الكتب

غَوْث

فخرجت الكلمات من فمي بسلاسة وطمأنينة معاكسة للاضطراب الممتلىء به الجو حولي:

- بل حياتك هي المعنى الوحيد لوجودي هنا.

وكأنما كانت جملتي هي نسمة الهواء التي أوقفت اندلاع حريق قلبه، حملق بوجهي فبدت عيناه لوحة حقيقية للتوهان، ضرب قلبي نوع من الحزن لا أستطيع تحديده، ولكنه شعور كأن قلبي يتآكل، خرج صوته ضغيفًا مرتبكًا:

- من أنتِ؟

عصير الكتب
غَوْث

ببطء شديد سحبت السكين من يده مستغله هدوءه المفاجئ وأجبت بعدما استعدت رباطة جأشي:

- أنا فريدة، وسنكون أصدقاء.

اتسعت عيناه وفغر فمه قبل أن يردد:

- أصدقاء؟

بدا للطفولة أقرب، وددت لو ألقيه داخل صدري وأحتضن خوفه بحنان، أُلملم ارتباكه وأهديه شيئًا من الطمأنينة، لكني أكتفيت بهزة من رأسي، فاحتلت

عصير الكتب

السعادة جزءًا كبيرا من فؤادي حين ابتسم لي ابتسامه لا تحمل سوى كل معاني البراءة.

****

تلحف فؤادي بالراحة، وارتسمت بسمة جزلة فوق شفتي وأنا أتذكر إياد وهو يغيب بنوم عميق بعدما طلب مني المكوث جواره كي يشعر بالأمان، تناولت الملابس من الحقيبة أضعها داخل الدولاب، ولكن أين هي زوجته؟ لم أرها مذ جئت، أليس من الذوق أن تستقبلني، هذا فضلًا عن وجوب تواجدها جوار زوجها،

عصير الكتب
غَوْث

يالها من زوجة مهملة كم أبغض هذا النوع من النساء، انتهيت من وضع ملابسي وتأملت الغرفة حولي، لا تختلف كثيرًا عن باقي المنزل، أثاثها يجمع بين الرقي والبساطة، ولكني لم أتحمل البقاء أكثر فخرجت لا أنوي على شيء، فتحت باب غرفة إياد قليلا ليقع شعاع ضوء تسلل من فرجة الباب لينير وجهه النائم فانتشى قلبي بحبور، أغلقت الباب ببطء شديد كي لا أوقظه ولكن سرعان ما انتفض جسدي بارتياع حين ظهرت الخادمة أمامي من العدم،

قالت فيما أضع يدي فوق صدري الذي أخذ يتسارع في الصعود والهبوط:

- هل أجلب لكِ الطعام سيدتي؟

- شكرا لكِ ولكني بحاجة للحديث معكِ قليلًا.

لم يخفَ عني إمارات التعجب التي حاولت إخفاؤها وهي تجيب بأنها تحت طوعي، تذكرت كلام السيدة جهاد عن كونها الوحيدة المطالبة بإعطاء الأدوية لإياد، إذن فلابد وأنها على مقربة منه لذا لا يأخذ الدواء سوى منها،

عصير الكتب.

تطلعت إليها فوجدتها تنتظر حديثي:

- هل من الممكن أن نتحدث بينما أحتسي كوبًا من الشاي معكِ بالمطبخ؟

ارتسم التعجب على وجهها ولم تحاول إخفاؤه هذه المرة، قادتني إلى المطبخ ووضعت لي كوب الشاي فوق المنضدة التي تحتل منتصفه، جلست أمامي تحملق بي وكأنني على وشك ارتكاب جريمة ما لمجرد التحدث معها، شيء ما بنظراتها أثار داخلي بعضًا من الخوف، ازدرت ريقي وبدأت الحديث:

عصير الكتب

– تُرى أين السيدة الآن؟

أجابت بثبات:

– في العمل فهي طبيبة أطفال مثل السيد إياد قبل أن يفقد ذاكرته.

:ارتشفت القهوة وأنا أسايرها الحديث

كان طبيب أطفال إذن، وهل للسيد إياد أطفال؟ -

أجابت دون ذرة تردد واحدة:

– لا لم يكن لديه.

عصير الكتب.
غَوْث

حلت صدمة المفاجأة فوق رأسي فاختل توازني، ألجمت الحيرة لساني فلم أزد حرفًا، تذكرت كلمات السيدة بثينة عن طفلته، تطلعت إلي الماثلة أمامي فلم أجد بملامحها شيئًا من إمارات الارتباك لدى الكاذب، هل أنا من لا أتذكر جيدًا؟ لا إني أتذكر قولها جيدًا عن وجود طفلة لديهما بالإضافة لرؤية ليندا لها عندما دخلت هذا البيت، راعاني أنني لم أرَ أيما طفلة هنا، هل أمها تخفي أمر الطفلة؟ بل ربما المنزل كله مشترك بشيء قبيح مثل هذا كي يبعدون الفتاة عن أبيها فاقد الذاكرة، يا إلهي لا بد وأنني

عصير الكتب
غَوْث

مخطئة فلا يوجد إنسان قادر على الإتيان بفعل شنيع مثل هذا، تململت بجلستها وكأن طول صمتي قد أثار سخطها، بحثت عن شيء أتحدث بشأنه فتاهت مني كل الأمور التي أردت معرفتها، سألتها بقنوط:

– هل لكِ أن تخبريني أية معلومات عن السيد إياد تساعدني في البحث عن طريقة لاستعادة ذاكرته كطفولته مثلا، شبابه حياته...

قاطعتني:

عصير الكتب
غَوْث

- سيدتي أنا جديدة هنا مثلك تماما لا أعرف سوى أن للسيد أياد عيادة أطفال تتولى السيدة مهنة العمل بها الآن.

أسقط بيدي وأدركت أنها عديمة الفائدة فألقيت سؤالا جديدا وكأني ألقيها بأداة حادة:

- ولمَ إذن أنت فقط المسئولة عن دواء السيد إياد؟

أجابت ببساطة استفزت اندفاعي:

لأن السيدة هي من طلبت هذا بإمكانك سؤالها هي.

عصير الكتب
غَوْث

خرجت من المطبخ يأكلني الغيظ، وتنهشني الحيرة هذه المرأة لا فائدة ترجو منها،

أخرجت هاتفي من جيبي وبأصابع تتسارع ضربت هاتف ليندا ليأتيني صوتها المرح:

– فريدة، ما الأخبار إلام توصلتي؟

تجاهلت سؤالها وبادرتها:

– ليندا أرجوكِ تذكري معي ألم تخبريني أن إياد لديه طفلة؟

– نعم رأيتها، هل أصابها مكروه؟

زفرت بضيق وأنا أجيبها بيأس:

- لا سأخبركِ لاحقًا.

ما إن أغلقت الهاتف حتى سمعت صوت ارتطام يأتي من غرفة إياد، هرولت إليها لتهدأ ضربات قلبي حين أبصرته يجلس فوق الفراش يتطلع إليّ بفضول لا أفهم سببه، دلفت للغرفة وسألته:

- ما كان هذا الصوت؟

تلاعب الخوف بملامحه، وأجاب بارتباك:

- لا أعرف.

لاحظت كشكولًا ملقى على الأرض فالتقطته قبل أن أجلس جواره على حافة الفراش وأنا أنظر لمحتوياته فوجدته فارغًا، سألته:

- لمن هذا الكشكول؟

رمقه بأسي وتغضن جبينه وكأنما لهذا الكشكول أثرًا سيئًا في نفسه، حملقت بتفاحة آدم خاصته وهي تهبط وترتفع قبل أن يجيب:

- لا أذكر من أهداني إياه على وجه التحديد، ولكني أذكر أن أحد ما

عصير الكتب.
غَوْث

طلب مني كتابة ملاحظاتي به كي لا أنسى شيئًا.

توقف عن الكلام وزاد عبوس وجه، رأيت اليأس يتجلى أمامي داخل مقلتيه، رق قلبي لحاله فافتعلت الحماس متسائلة:

- وما الضير بهذا؟ إنها فكرة رائعة.

فتر ثغره ثم أغلقه مرة ثانية، حاولت فهم تعابير وجهه ولكني فشلت، رأيت حمرة خفيفة تتسلل لخديه ولم أعِ لهذه الإمارة -التي لا تدل على شيء سوى الخجل- مفهومًا، فحثثته على الحديث بهزة

عصير الكتب.

من رأسي، وحين رأي مني الاهتمام استكانت ملامحه قبل أن ينطق بهدوء جعلني أخجل من مدى جهلي:

- الضير أني لا أتذكر كيفية القراءة والكتابة، لقد كنت منذ يومين لا أستطيع مجرد التحدث.

تقطعت أنفاسي، وتخبط فؤادي بين الفزع والتيه، وجدت نفسي بغتة داخل سيارتي أقودها إلى حيث لا أعلم، نظرت جواري فوجدت إياد ولكنه متشح بالسواد، إذ كان غبار أسود يغطي كافة جسده،

عصير الكتب

أدركت أنه هو صاحب اللوحة وليس فاقد الذاكرة، هذا الذي بجواري هو من ظهر لي وطلب المساعدة، أكثر ضخامة وعرضة، يحملق بي مثلما أحملق به، لم أفهم نظراته، ولم أعِ مفمومًا لنظرة الاستغاثة بعينيه، ارتطم جسدي بموقد السيارة، تحاملت على نفسي وخرجت منها أبحث بجسدي عن منبع الدماء ولكن دون جدوى، تقدمت بخطوات مترنحة نحو السيارة التي صدمتني، لتأتي مطرقة الحيرة تهشم رأسي فتُخل توازني حين رأيته غارقًا بدمائه خلف الموقد، رأيت إياد!

عصير الكتب

خانتني قدماي لأسقط طريحة فما كان سوى أن أجد نفسي داخل المنزل المحترق، نعم إنه هو نفسه، تطلعت حولي بريبة وكأنما كنت على يقين من رؤيته، رأيت إياد يجثو على قدميه بأحد الأركان، يتطلع إلي ونظرة الاستغاثة لا تتخلى عنه، بسط يده نحوي وبصعوبة بالغة خرج صوته متألمًا:

– ساعديني.

جاهدت للذهاب إليه ولكن قدماي تم لصقمها بالأرض أسفلي بسلاسل

لا أراها، هلع قلبي وأدمى الفزع روحي حين رأيت النيران تندلع لتتشبث بجسده، أخذ يتلوى داخلها وصراخه يقطع نياط قلبي، أخذت أهمش بقدمي في محاولة للفكاك ولكن حركاتي الهيستيرية جمدت حين رأيته يجثو فوقي بجسده الضئيل، بهيأته الأكثر وداعة وأيضًا الأكثر اضطرابًا، يسألني بخوف حقيقي:

– ما بكِ؟

تطلعت حولي بتوجس فوجدت نفسي مازلت بغرفته ولكني مسجاة فوق الأرض، أمسكت بيده الممدوة نحوي وساعدني على النهوض، شكرته ومازال صوت

عصير الكتب
غَوْث

صراخه وهو يحترق يتردد داخل عقلي، حملقت به أبحث عن أثر حروق ولكني لم أجد، اندلعت نيران الحيرة بروحي تحرقها، تُرى ما الذي يعنيه هذا؟ ولمَ يطلب مني مساعدته ثم أراه يحترق إن كان ها هو أمامي لا يشكو شيئًا سوى فقدانه للذاكرة، تنحنح بحرج وأدركت أنني كنت أدقق النظر به فانتابني الحرج بدوري، أتى سؤاله كرة أخرى بقلق أكبر:

– هل أنتِ بخير؟

وددت لو أجيبه بل أنت من يجب أن أسأله هذا السؤال، ولكني أجبت:

عصير الكتب

عصير الكتب

– نعم بخير لا تقلق، كنت تخبرني أنك غير قادر على القراءة والكتابة أليس كذلك؟

اكتفى بهزة من رأسه مفادها أن نعم، تطلعت إليه بحماس حقيقي وقلت تباعا:

– حسنًا سأعلمك القراءة والكتابة.

لم يشاركني حماستي وإنما أردف بيأس يتقطر من طيات حروفه:

– لا شيء يفيد، فأنا لا أعي لحياتي معنى، تخيلي كونك لا تتذكرين شيئًا عن نفسك على الإطلاق، لا

تتذكرين مهيتك، بل إنكِ لا تتذكرين كيف تقومين بالأمور الأساسية كي تبقي على قد الحياة فتحتاجين لمن يعلمك النطق والمشي بل وحتى كيف تقضين حاجتك.

كانت بحة صوته والحرقة بحديثه كالسوط يضرب على قلبي لينزف قهرًا، أطبقت جفناي أخفي ما يعتمل داخلي من شفقة عليه، ثم فتحتهما بالتزامن مع حديثي الذي جاهدت لأجعله بعيدًا عن اليأس كل البعد:

عصير الكتب

- لا أدري ما المشكلة في البدء من الصفر مجددًا، وها أنا أرى داخل مقلتيك ذكاءً كافيًا ليجعلك لا تستسلم للفشل، فمثلما تعملت الكلام والمشي بمدة قصيرة تستطيع أيضًا فعل هذا.

تسلل بعض من عزيمتي إليه فقال بجزل طفولي إثر مديحي إياه:

- قالوا إنني سريع التعلم.

بادلته الابتسام بجزل:

عصير الكتب
غَوْث

- أعرف هذا فيبدو عليك الذكاء، ثم سنبحث سويًا عن شيء تتعلمه على الإنترنت وتبدأ العمل من جديد ما رأيك؟

ردد بعدم فهم:

- الإنترنت ؟

أمسكت يده أشد على قبضته مشجعة:

- سأعلمك كيف تستخدم الهاتف والحاسب الآلي وستصبح شخصًا آخر أعدك.

عصير الكتب

اكتفي برسم بسمة فوق شفتيه، بسمة حقيقة تمنيت لو شاركته فيها من قلبي، ولكن بسمته هذا ما كانت سوى مسئولية جديدة تم إضافتها لمسئولية إنقاذه مما أصبحت لا أعي كنهه على وجه التحديد.

أيوجد إنجاز أعظم من أن تُهدي الحياة لأحدهم؟ أن تراه وهو يتعلم أولى خطوات العيش على يديك؟ أتوجد فرحة أكثر من فرحة الأم وهي ترى نجاح ابنها الذي يُبنى على تعبها؟ لا أعتقد أنه ما من شيء آخر أكثر لذة من هذا، أقف مبهورة الأنفاس بتقدم إياد في القراءة بعد أقل من ثلاثة شهور وهو يتلو على مسامعي شعرًا

لنزار قباني بل ويعلمني معانيه، لم يخب ظني حين رأيت الذكاء يتطلع من مقلتيه، فقد أثبت لي صدق حدسي خلال أيام معدودات حين تعلم كافة الحروف الأبجدية والأرقام، أصبح أكثر طمأنينة وكأن المعرفة أضحت بالنسبة له مصدر الأمان، تبدلت نظرات التيه بمقلتيه لنظرات شغف وفضول، فاقني في حب الاستطلاع، لم أكن يومًا من محبي القراءة وهو ما جذبني إليه، أجلس جواره تترنم أذناي بنبرته العميقة وهو يقرأ الأشعار، هل يصبح أكثر وسامة وهو ممسكًا بكتاب أم هكذا يُهيأ إلي؟

التفت نحوي بغتة فخانتني دقات قلبي إذ علا صوتها حد السماء حتى بدا لي أن الكوكب أجمعه يسمعها، أكاد أجزم أن خداي قد توردا، جاهدت كي أرسم بسمة ثابتة وهو يقول بنبرة ملأها الشغف:

- اسمعي يا فريدة هذه الأبيات فهي المقربة لقلبي.

أرهفت السمع فأتاني صوته مُبهجًا كتغريد العصافير:

"كان عندي هنا أميرة حب

ثم ضاعت أميرتي الحسناء

أين وجه في الأعظمية حلو

عصير الكتب
غَوْث

"لو رأته تغار منه السماء

أغلق الكتاب، تقدم نحوي وفوق ثغره ابتسامة تجعل قلبي ينبض بالحياة، قال وفي عينيه بريق لطالما ألهب الحماس بروحي:

– أتعلمين أن هذه القصيدة ألقاها نزار بمهرجان بالعراق وكان يقصد بها حبيبته بلقيس؟

أحببت حبه للشعراء وفضوله كي يسعى لمعرفة حيواتهم، بل إني أحببت فضوله للمعرفة بشكل عام، فقلت له مشجعة:

عصير الكتب

غَوْث

عصير الكتب

- لا أعرف شيئًا عن نذار سوى كونه شاعر النساء، فما قصة بلقيس هذه؟

ارتفع حاجبيه دهشة كعادته عندما أطلب منه أن يطلعني على شيء ما، يتعجب كيف لي ألا أكون على معرفة بها من قبل،

جلس على الكرسي جواري داخل شرفة المنزل التي أصبحت مكاننا المفضل أغلب الأوقات:

- لقد أحب نذار بلقيس وهي فتاة عراقية تغزل بها في كثير من قصائده المعروفة، مما حال دون خطبته إليها فكان في عرفهم ألا يرضى الوالد بمن تغزل بفتاته.

أوقف الحديث كي يضحك مليء فمه فتظهر غمازة خده اليسرى،

أردف حديثه وهو يغالب الضحك:

- وكأن من لا يجيد التغزل هو بالضرورة شخص محترم.

عصير الكتب.

شاركته الضحك بابتسامة متأملة ذلك الجالس أمامي والفخر يُعبء صدري إذ فلحت في إخراجه من وحل الكآبة الذي كان يتمرغ فيه، استأنف حديثه:

– وفي إحدى زياراته للعراق ألقى بهذه القصيدة وكان يقصد بها بلقيس فتأثر الحضور وكانت سببًا في جمعهم سويًا ثم تزوجا.

اتسعت ابتسامتي جراء فرحته العارمة وكأنه هو من تزوج وليس نزار، لاحظت وجومه المفاجئ فسألته:

– ما بك؟

عصير الكتب
غَوْث

حملق فيّ بوجه يتقلص ألمًا ليسألني بنبرة طالت من الحسرة نصيبًا:

– فريدة لمَ لا تُعاملني زوجتي بحب؟ بل حتى هي لا تنام معي بنفس الغرفة؟ أكاد أشعر أنها ما كانت زوجتي يومًا.

انقبض صدري وتسلل كثير من حزنه لروحي، فلم أكن أعلم لسؤاله جوابًا، لاح بخاطري محاولاتي المستميتة معها كي أعرف شيئًا من حياة إياد الماضية لأساعده كي يعود بالذاكرة ولكنها كانت تكتفي بقول إنني هنا فقد لرعايته لا أكثر ولا أقل، وكأنما لا تهتم لعودة

عصير الكتب
غَوْث

ذاكرته بأي شكل من الأشكال، شحذت نفسًا عميقًا وكأنني قادمة على حرب ما:

- لربما هي حزينة لحالك ولا تريد رؤيتك هكذا.

ما إن نطقت جملتي حتى هاجمني الندم، أنّى لي أن أقول له هذا الحديث بدلًا من بث روح الحماس بداخله، ولكنه بعثر ندمي حين لاحت بعينيه نظرة ممتنة:

- حمدًا للّه على وجودكِ، فأنتِ من تضفين لحياتي معنى.

عصير الكتب
غَوْث

خفق قلبي، وسرت رعدة بأطرافي، اجتاحت روحي سعادة بالغة، وفرحة عارمة أكاد أُجزم أنني لم أشعر بها من قبل، لم أستطع أن أسايره الحديث إذ كبلت لساني خيوط الخجل وألجمته، ولكني سرعان ما ضربت بالخجل عرض الحائط، بحلقت به وأرهفت السمع حين وجدته يقول بنبرة أكثر علوّا:

– ميزنا اللّه بالموهبة كي نسد ثغرة ما، ساعديني أرجوكِ.

جفلت وانتصبت بجلستي، وجدت نفسي أسأله بهلع:

عصير الكتب

– إياد كيف أساعدك اخبرني؟

ضرب الجنون عقلي حين وجدته يقول ببساطة:

– بأن نأكل سويًا أنا جد جائع؟

ملت بجزعي نحوه أكثر وسألته بلهفة الباحث عن المخرج وسط المتاهة:

– لقد تحدثت لتوك عن الموهبة وطلبت مساعدتي، أية موهبة تقصد ولمَ قلت هذا الكلام؟

عصير الكتب

غَوْث

تخلل صمت مزعج الهواء بيننا فيما كان يُحملق بي بعدم فهمت، أدركت بهذه اللحظات ما حدث، فأجابني بخفوت:

- لم أزد عن قولي بأني جائع.

هاجمني الصداع وحلت الخيبة كضيف ثقيل على صدري، لقد ألهتني مساعدة إياد في التعلم عن مساعدته في رجوع الذاكرة إليه، نظرت إليه من طرف خفيّ فوجدته قد عاد لقراءة الكتاب وتناسى جوعه، أعلم أنه لن يأكل من دوني فكيف سيتذكر الطريقة التي يمسك بها الشوكة والسكين دون أن أذكره كما

عصير الكتب

أفعل قبل كل وجبة؟ عجبًا لذاكرة الإنسان، فهو لا ينسا أبدا القراءة مثلما يغفل عن غيرها من الأمور، مسدت عيناني ثم فركتهما بعصبية قبل أن يزورني بريق مفاجئ، لقد تحدث للتو عن الموهبة، لمَ لا أرسم بجواره وأرى ما سترشدني إليه الرسومات؟

٦

الدواء

دلفت غرفتي بعدما تناولنا الطعام وأقنعت إياد –الذي يكره النوم لسبب لا زلت أجهله– بأن يأخذ قسطًا من الراحة، أخذت أغذ الخطى داخل الغرفة وأحاول ربط الأحداث من أول الظل بالمشفى إلى الآن، حسنًا كل ما هنالك أنني الآن جوار الشخص الذي يحتاج مني المساعدة،

عصير الكتب
غَوْث

ولكني بطريقة أو بأخرى أسير في الاتجاه الخاطئ، وإلا لما طلب مني المساعدة اليوم، ألقيت نظرة إلي اللوحات البيضاء والألوان الملقاة جوارهم، انتابني شيء كالحنين المُخالط بالذنب، وكأني خنت العهد مع والدي الذى تمنى لى أن أكون فنانة مشهورة، وطلب مني عدم الكف عن الرسم قبل موته، التقطت الألوان وشعرت بعين والدي تتأملني بحب، شعرت به يحثني أن نعم، هذه أنتِ وهذه مهنتكِ الحقيقة لا تنسينها، ابتسمت بمرارة وأنا أغالب دمعة حارقة جاهدت لتتنفس خارج أهدابي ولكني كنت لها بالمرصاد،

عصير الكتب

أغمض عيني وأخذت أدندن بكلمات لأغنية فيروز المفضلة لأبي.. "شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك"

وبدأت رحلة جديدة من رحلاتي الحبيبة لعالم الألوان، سرى خدرها بجسدي، غاب عقلي كما تفعل المخدرات فالألوان هي مخدراتي المباحة، رقصت يدي والفرشاة معًا مكونين خيوطًا وتعاريج، انصهرت داخل الألوان حتى أصبحنا كيانًا واحدًا، بدأ الخدر يتنازل عن جسدي رويدًا رويدًا، وعقلي يتخلى عن غيابه ليعود للواقع حثيثًا، أبصرت اللوحة أمامي وكأنها

عصير الكتب.
غَوْث

الوهلة الأولة التي أنظر إليها، ندت عني شهقة كتمتها بيدي، وقبل أن يسنح لقلبي الوقت الكافي كي يستوعب اللوحة شقت صرخة إياد الفزعة عنان السماء، فركضت نحو غرفته يحملني الهلع ويجرني الخوف إليه جرًا، رأيته يهمش ويصرخ بفزع شق نياط قلبي لحاله وجعل أم يوسف تقف جوار مخدعه لا حول لها ولا قوة،

وبدون وعي كنت أحتضنه داخل صدري وأنا أمسد رأسه لا أريد سوى بث الاطمئنان لقلبه، ولكنه ما انفك يصرخ برعب حقيقي، إلى أن خارت قواه وبدأ عقله

عصير الكتب

عصير الكتب

يستوعب أنه مجرد كابوس مزعج، انقبض صدري وهو يناديني بضعف:

- فريدة

أمسكت وجهه بين كفي وحدقت بعينيه التي كانت تحوم بأنحاء الغرفة، ليقول وكأنما يرى ما يرويه:

- أتذكر الحادث، لقد كنت أهرب من شيء ما أو أود اللحاق بشيء ما لا أذكر، ولكني أذكر سيارة سوداء تظهر فجأة أمامي، ثم ثم ثم

أخذت أنفاسه تتسارع حتى كدت أظن أنه سيفقد الوعي، أحتضنه مرة أخرى وأنا أناجيه أن يهدأ:

– أرجوك اهدأ أنت بخير الآن.

أخذت أنفاسه تنتظم مرة أخرى، تطلعت إليه فرأيت بعينيه نظرة جعلتني ابتعد عنه خجلًا، تُرى هل تذكرني؟ يبدو وكأنه ينظر إلي للمرة الأولى،

ما الذي سيحدث إن تذكرني؟ هل سيعاملني بجفاء؟ هل سيظن أنني هنا بدافع الإشفاق؟ هل سيكرهني

عصير الكتب
غَوْث

لكوني سببًا في فقدانه الذاكرة؟ غاص قلبي بألم لهذا الخاطر، ولكنه أعاد الأمل إليّ حين قال بخفوت:

- لقد تذكرت شيئًا آخر يا فريدة؟

لم أستطع الابتسام، ولم أبادله فرحته بالتذكر، ولكني طلبت من الخادمة الواقفة جواري أن تجلب له كوبًا من الماء، تتبعتها بنظراتي وما إن خرجت حتى عدت بنظراتي لإياد

مما جعلني أندفع بجسدي من فوق الفراش، توقفت أنفاسي وساد الطنين داخل أذني، بدا المشهد بالحركة

عصير الكتب
غَوْث

البطيئة وبدت حركتي كحركة سلحفاه، رأيت النيران تلف جسده فوق الفراش وهو يمد يده نحوي باستغاثة وعلى وجهه نظرة ألم وفجع تمكنا من الفتك بقلبي، أردت الصراخ، أردت إلقاء نفسي نحوه وإخراجه من النيران ولكني كنت مكبلة بطريقة ما، ثم عاد كل شيء لما كان عليه! فجأة أصبح كل شيء كما كان منذ دقائق أو ربما ثواني لا أعلم!

كان يجلس أمامي ونظرة عينيه الهادئة تطالعني بفضول وكأنما يراني للمرة الأولى، وكأن نظرته كانت القطرة التي أفاضت بالكوب، وللمرة الأولى أجهش

عصير الكتب
غَوْث

بالبكاء أمام أحدهم، وضعت يدي على فهمي أحاول محاربة شهقاتي ولكن هيهات، هنا كان دور إياد كي يحتضنني، أخذ يمسح على رأسي بارتياب، وكأنما أصبح أبًا فجأة بدأ يهدهدني بحنان العالم أجمع، لم يسألني عن سبب بكائي مما جعلني أشكره بخاطري، فلو كان فعلها لكان سببًا يدفعني للبكاء أكثر،

ولكنه انتظر إلى أن هدأت ثورة دموعي وعاصفة وجداني، نظرت إليه بخجل فرأيت نظرة حنان لمست بقلبي وترًا حساسًا إذ لم ينظر إلي أحدهم نظرة حنان كهذه سوى والدي، سألني بصوت رخيم:

عصير الكتب

غَوْث

- ما الذي يحدث معكِ يا فريدة؟

كان صوته ثابتًا، بدا واثقًا ومهيأ للاستماع كانت نظرته عميقة تجتاح حنايا روحي مما جعل قشعريرة تسري بجسدي وإحساسًا عجيبًا يُخبرني بأنني يجب أن أُطلعه على كل شيء حتى وإن كان لا يتذكر شيئًا، ولكن حدسي أخبرني أنه سيصدقني وقد كان.

تسللت لفراشي بجسد أنهكه الإعياء، وروح أجهدها التفكير، تبدلت الأدوار بيني وأياد وتلبس هو دور المرشد وأخذ ينصحني بالذهاب للنوم بعدما إنصرم اليوم أقص له مايحدث معي منذ أن أصطدمت معه

عصير الكتب
غَوْث

بالحادث، كانت ردة فعله غير مفهومة، صدق حديثي دون أدني شك منه في مصداقيته، ولكنه لم يتخل عن وجوم وجهه، واحتلت عينيه نظرة جديدة عليّ، نظرة من يحارب بالخفاء، أدركت أنه يجاهد ليربط الأمور ببعضها، لم يقل شيئًا أو يستفسر عن شيء سوى شيء واحد لم أعد أهتم أو أتساءل بشأنه

"تُرى من هما الطفلان؟"

أُسكت الأصوات داخل رأسي حين هاجمني الصداع بغتة، شحذت نفسًا عميقًا وتهيأت للنوم قبل أن ألقي نظرة على اللوحة التي رسمتها حديثًا، أغمض جفناي

عصير الكتب
غَوْث

فظهرت من ورائهما بعناد مخيف وكانت السيدة جهاد تنظر إلي بمكر ممسكة علبة بيضاء صغيرة.

– هذه زوجتي؟

قالها إياد وهو يطلع للوحة التي طلب رؤيتها، رنت إليه فوجدت ملامحه جامدة لم أعِ سبب جموده:

– نعم ولا أدري لم رسمتها.

أجاب دون أن يحيد ببصره من فوق اللوحة:

– لأنها وببساطة تملك حلًا لما نبحث عنه.

عصير الكتب
غَوْث

أجبته بإعياء:

لا حاولت معها مرات ومرات، لم أستطع الاستفادة منها بشيء، جوابها الوحيد أنني مجرد مرافقة لك لا طبيبة معالجة.

تغضن جبينه وعلق بثبات:

– إذن هي لا تأبه بعودة الذاكرة إليّ.

تنهدت بتعب:

– هذا ما أخشاه.

عصير الكتب

تقدم نحوي وجلس فوق المقعد المقابل لي، أخذ يفرك يديه وبنبرة مدروسة قال:

- إن لم تكن ستساعدنا بخاطرها فيجب علينا أن نحصل منها على المعلومات عنوة.

- كيف هذا؟

حملق بوجهي قبل أن يتطلع للوحة ثم عاود النظر إلي، هم بالحديث ولكن الكلمات ماتت على شفتيه لينهض فجأة ويتوجه نحو اللوحة متأملًا، مما دفعني

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

للنهوض والوقوف جواره أتأمل اللوحة بدوري، فأتى صوته عميقًا كما لو كان من مكان بعيد:

– هذه علبة الدواء التي أراها دائمًا مع بثينة.

تذكرت على الفور تأكيدها لي بأن بثينة هي الوحيدة المسئولة عن الدواء، ولاحت بذاكرتي نظراتها الغريبة وهي تلقي علي هذا الأمر العجيب وإصرارها عليه، حملقت بوجه إياد بحيرة وسألته:

– ترى ما معنى هذا؟

نظر لعيني بتصميم أجاب:

- يوجد لغز ما وراء هذا الدواء، ما سيحدث هو أنكِ ستحاولين الوصول إليه ومعرفة مكوناته من العلبة، وأنا سأحاول التقرب منها بحكم أنني زوجها، ولا بد من أن شيء ما سيتضح من خلالها.

أومأت له رأسي موافقة، مر كل حديثه بسلام ونال مني موضع الاستحسان سوى حديثه عن التقرب لزوجته، تلك المرأة المتعجرفة التي لا تهتم لشأن زوجها ولا تبالي سوى بهندامها ولون طلاء أظافرها لا تستحق زوجًا كإياد، أحرقت الغيرة قلبي وجزءًا مني ألقى اللوم على إياد، فبأي عقل اختارها زوجة له؟

٧

مشاعر حب

تأففت بغضب، وأكلني الغيظ، فها هي المرة الثالثة التي أحاول فيها الرسم لتظهر لي نفس اللوحة حاملة جهاد بنظرتها المتعالية، وكأنها تود أن تخبرني بشماتة "لا مجال أمامكِ سواي يا عزيزتي" ضقت ذرعًا من نظراتها وكأنها ماثلة أمامي بالحقيقة، ضاقت بي الغرفة وخرجت رأسًا صوب المطبخ، كنت غاضبة ويائسة، أبعد كل هذا أدفع بإياد دفعًا ليتودد إليها؟

عصير الكتب
غَوْث

يا إلهي ينهشني الحنق كلما تذكرت أنهما معًا الآن،

ألا يوجد ما أكسره كي أفرغ قليلا من غضبي؟

قابلني وجه أم يوسف بابتسامة باردة أظنها لم تمس شيئًا من قلبها، ألقيت التحية ووقفت أعد كوبًا من القهوة متظاهرة بالشرود فيما أراقبها وهي تعد الطعام بعين خفية، انتهزت فرصة خروجها من الغرفة وهرولت نحو الأدراج باحثة عن علبة الدواء، وجدتها بأحد الأرفف العالية وكانت نفسها المرسومة باللوحة، قرأت محتوياتها فلم تزد عن كونها فيتامينات للجسم، ما الضير بها إذًا؟

عصير الكتب
غَوْث

تناهت خطوات أم يوسف لمسامعي وكدت أعيد الدواء مكانه، ولكني بدلًا من هذا التقطت بضع حبات منه ووضعتها بجيب بنطالي قبل أن أعيد العلبة لموضعها.

دلفت أم يوسف للمطبخ بينما كنت أمثل أنني ألقي شيئًا ما بالقمامة. خرجت من المطبخ بأنفاس متسارعة وقلب مضطرب، حمدًا للّه أنها لم تراني.

ذهبت لغرفة إياد فلم أجده، خرجت أبحث عنه داخل الشرفة فأضناني رؤيته يجلس بجوار جهاد، شعرت بشيء كالخيانة لمجرد جلوسهما بها وكأن الشرفة هي مكاني أنا وإياد فقط دون سوانا،

عصير الكتب

اقتربت منهما ببطء علّني أسترق السمع لشيء من حديثهما دون أن يريانني، ولكني صحت بفزع حين أتت أم يوسف من العدم لتصيح:

- سيدتي لقد نسيتي القهوة.

التفت رأسي إياد وجهاد نحوي، بينما أخذت فنجان القهوة من بسينة بابتسامة خارجية وداخلي يسبها ويتمنى لو انشقت الأرض وابتلعتني، تقدمت نحوهما بخجل لا أدري أكان لاقتحامي جلستهما، أم خجل من محاولتي التجسس عليهما؟

عصير الكتب

ابتسم لي إياد فدفنت رأسي بقدح القهوة، ضرب سمعي صوت جهاد المتعالى:

- إياد حبيبي لا تحاول هذا ثانية، فأنت هنا شفقة مني لا أكثر، امرأة غيري لطلبت الطلاق.

وقفت القهوة بحلقي، وتعالت مراراتها بجوفي، أكاد أجزم أنني رأيت الخذلان يتسرب بين ذرات الهواء منبعه قلب إياد، مما جعلني أشعر بالحزن لحالة.

تأملت ملامحه المتغضنة ولم ينبس بحرف، فما كان منها إلا أن نهضت وغادرتنا، مددت يدي بتردد

عصير الكتب
غَوْث

ولكنها استقرت أخيرًا فوق كتف إياد الذي تطلع إلي حينًا قبل أن يقول بأعين التمعت بدموع القهر:

- يجب أن أتذكر شخصي يا فريدة، هذه المرأة لا يمكن لها أن تكون قد تزوجتني بدافع الحب، هناك سبب آخر.

شددت قبضتي على كتفه وكأني أبث له شيئًا من القوة، سألته وأنا أعيد كلماته برأسي:

- سبب آخر مثل ماذا؟ المال مثلا؟

ابتلع ريقه وهو يجيب بحزن:

عصير الكتب

غَوْث

عصير الكتب

- أي سبب آخر يا فريدة، أي سبب سوى الحب.

خرجت منه تنهيدة حارقة أصاب لهيبها صدري، استأذن مني ليذهب لغرفته، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها بهذا الانكسار، ثَقُل صدري وتفاقم السخط بقلبي، دفعتني العصبية ووجدتني أطرق غرفة جهاد بعنف، فتحت لي وعلى وجهها إمارات التعجب، دلفت الغرفة دون أن أنتظر إذنها، وتحت نظراتها المشدوهة أخذت أبحث بأنحاء الغرفة وكافة الأدراج إلى أن استوقفتني بعنف وهي تصرخ:

- ماذا تفعلين هل جننتِ؟

حدقت بها وأنا أتساءل هل حقًا جننت، ابتلعت غضبي وأجبت بهدوء مخالف لثورتي:

- أبحث عن أي شيء له علاقة بحياة السيد إياد قبل الحادث، أي شيء كان، فأنا لا أصدق أن زوجته لا تملك شيئًا لزوجها.

ضربت رأسها علامة الجزع، ورفعت يداها في الهواء وهي تجيب بقنوط:

- أخبرتكِ بدل المرة ألف، أن كل شيء ذهب جراء حريق اندلع بمنزلنا القديم، بالإضافة إلى كونكِ هنا

عصير الكتب

غَوْث

ممرضة له لا طبيبة، لمَ لا يقبل عقلك المحدود هذا الاستيعاب؟

ابتلعت إهانتها مجاهدة ألا أصفعها على وجهها الجميل إلى أن تمتزج به الألوان فتصير بهلوانًا، اقتربت منها مقلصة المسافة بيننا:

- ولمَ لا يستوعب عقلكِ أن هذا زوجكِ وواجبك هو الوقوف جواره ومساعدته بدلًا من التفضل عليه بعدم طلب الطلاق؟

عصير الكتب
غَوْث

اتسعت مقلتيها بدهشة، لم تتوقع كلماتي، ولكنها سرعان ما بدلت نظرة التعجب بابتسامة صفراء وهي تتوجه للفراش وتجلس فوقه بأريحية لتقول بصوت بدى كفحيح الأفعى:

– فريدة يجب أن تتحكمي بمشارعك أكثر من هذا حبيبتي، وبدلًا من إلقاء اللوم على زوجة مهملة مثلي، ألقي اللوم على أخرى تقع بحب رجل متزوج.

هوة عميقة انبثقت أسفل مني لأشعر بأنني أسقط في الهاوية، جاهدت كي لا تخذلني قدامي وأسقط مكاني،

عصير الكتب

غَوْث

صرخت بوجهها وهنا أدركت أن صوتي العالي ما هو إلا وسيلة أُخفي بها ما يموج داخلي من اضطراب:

- ما هذا الهراء الذي تقولينه؟ أنتِ مخطئة فكل ما هنالك هو شعوري بالواجب نحوه لا أكثر ولا أقل.

اتسعت ابتسامتها فبدت كحية كبيرة وهي تقترب نحوي بدلال مستفز، وتضع يدها على كتفي وهي تدور حولي وكأنها تقيم استعراضًا ما:

- تؤ تؤ تؤ فريدة حبيبتي أنا امرأة مثلك وأعي تماما نظرة المرأة المحبة لحبيبها، وأنتِ يا حبة العين

عصير الكتب
غَوْث

وقعتي بحب إياد وهو أمر ظاهر للعيان حتى بدت قسماتكِ تنطق به.

أزحت يدها عن كتفي بعنف، صرخت أنعتها بالجنون قبل أن أخرج من الغرفة مسرعة

وكأنني أهرب من الجحيم ذاته،

فاصطدمت بإياد الذي تلون وجهه بالقلق:

-ماذا بكِ يا فريدة سمعتكِ تصرخين هل أنتِ بخير؟

– هي بخير تماما لا تقلق.

عصير الكتب
غَوْث

أتى صوتها من خلفي كالفحيح فأكملت سيري نحو غرفتي، وقد عزمت على ترك كل شيء خلفي، لا يوجد أهم من كرامتي كي أصونها،

سألقي بكل شيء عرض الحائط وأجمع حاجياتي وأرحل من هنا،

أتت طرقات الباب –التي حاولت تجاهلها– معاندة حتى تركت الحقيبة وفتحت الباب بسخط فأتاني وجه إياد يتطلع إلي بفضول:

– هل كل شيء على ما يرام.

عصير الكتب

نظرت لعينيه الواسعتين، رأيت بهما اهتمامًا لطالما ذكرني بأبي، مكان ما بقلبي أراد أن ألقي بنفسي داخل صدره كي أستشعر حنان أبي الذي فقدته، ولكن عقلي تنبه وأنبأني بعنف

أن هذه هي حقًا مشاعر حب! زوجته محقة فقد وقعت بغرامه، أغلقت الباب بوجهه بعنف كعنف الصفعة التي تلقيتها من نفسي للتو، كيف كنت أتغاضى الطرف عن شيء كهذا؟

كيف لم ألحظ ما هو واضح وجلي؟ كيف حتى لم أنتبه لكوني أغار من زوجته؟!

غَوْث

ما إن ركبت سيارة فؤاد – الذي جاء لتوصيلي– حتى اهتزت الأرض من تحتنا، تذكرت المشفى فقد حدث بها نفس الشيء،

ولكن الظل هذه المرة لم يكن ظلًا فقد كان إياد بشحمه ولحمه، بدا لي أطول قامة وأكثر عرضة، نظرته الوديعة تبدلت بتلك المستغيثة، يبدو مختلفًا جدا في نوبات ظهوره الغريبة هذه، كيف للمشاعر المختلفة أن تبدل الملامح بهذا الشكل، لم التفت إليه وتعمدت النظر أمامي دون أن آبه لتوسلاته، حيث ما انفك

يصرخ "ساعديني" دون أن تتحرك شفتاه، فقط نظرة جامدة فوق محياه ومقلتاه يستغيثان.

أمرت فؤاد الذي لم يكن يرى شيئًا بأن ينطلق، وما إن تحركت السيارة حتى اندلعت النيران على طول الطريق أمامنا،

بدأ إياد يحترق بها ثانية مثلما أراه كل مره ويمد يده نحوي مستغيثًا، تفصد العرق من جبهتي وأخذ جسدي يهتز بهلع، لا أقوى على رؤيته هكذا ولكن لا، لن أعود ثانية، لن أكون الفتاة التى لا تملك من الأخلاق شيئًا كي تقع بحب رجل متزوج، أغمضت

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

عيني ووضعت يدي على أذني وأنا أصرخ "ليس حقيقيًا ما ترينيه، ليس حقيقيًا اهدأي يا فريدة."

انتفضت جسدي بهلع حين شعرت بلمسة فؤاد الخاطفة فوق كتفي قبل أن يبعدها إثر انتفاضتي ليقول بتلعثم زاده الارتباك:

- ل ل لقد و و وصلنا للمنزل، أ أ أ أنتِ شاردة طول الطريق.

حملقت به وكأنني أتيت من عالم آخر للتو، أخذ الأمر مني دقائق كي يعود تنفسي لرتمه الطبيعي، وتهدأ

غَوْث

نبضات قلبي، ترجلت من السيارة بوهن وأنا أجاهد كي لا يستعيد عقلي مشهد إياد المستغيث، لكنه ما ينفك أن يعاود الانبثاق داخل حنايا عقلي،

أخذت أزحزح قدماي وقد أثقلهما الإعياء إلى أن وصلت لباب منزلنا، وما إن انبثق وجه أمي من خلف الباب حتى اجتاحني حنين جارف ضرب بفؤادي لتختلج نبضاته ويرتبك سريان الدم بجسدي فتغيب الدنيا عن نظري شيئًا فشيئًا وتصبح نظرات أمي الفزعة المتلهفة آخر ما أراه.

****

عصير الكتب

غَوْث

- تُرى لمَ يظهر لكِ دائمًا داخل نيران؟

كانت ليندا تفكر أكثر من كونها تستفهم مني، فهي تعلم أنني أكثر منها حيرة، فإياد سليم بالكامل لا يوجد بجسده أي آثار حروق، دلفت أمي الحجرة ومعها صينية تحمل فوقها عصير البرتقال الذي تحبه ليندا، نظرت لأمي بحنين بالغ فما كنت أظن أنني سأشتاق إليها لهذا الحد، نبض قلبي نبضة ألم لم أعِ لها سببًا، وحنين داخلي يتفاقم ويتفاقم رغم كوني أنظر إليها أمامي،

عصير الكتب
غَوْث

وكأنها شعرت بما يعتمل داخل صدري فبادرتني قائلة :

– أشتقت إليكِ كثيرًا حبيبتي.

مسحت على رأسي وأنا أبادلها الابتسام تحت نظرات ليندا المتأثرة:

– لقد تضاعف اشتياقي لوالدكِ بغيابكِ فأنتِ تشبهينه لحد كبير.

انقبض قلبي واعتصره الألم لوقع حديثها ، وأدركت بطريقة ما سبب نيران الحنين داخلي التي لا تخبو

عصير الكتب

جزوتها، فليست أمي فقط التي أشتاق إليها، وإنما أشتاق لحنان أبي، حنان أبي الذي أصبحت أجده لدى إياد، أشتاق لإياد.

ابتلعت حنيني، ودفنت مشاعري خلف رداء البسمة، تبادلت وأمي القبلات على الرغم من مرور يومين على عودتي للمنزل، تتبعتها بنظراتي وهي تخرج من الغرفة لتصيح ليندا:

- عندي لكِ خبر رائع لن تصدقينه.

عصير الكتب
غَوْث

انتعش قلبي ببضع حماس وقليل من الفضول، من ذا الذي يجلس جوار ليندا ولا يُصاب بحماسها المتّقد؟ جاهدت كي أبقي على اتساع ابتسامتي وأنا أحثها على الحديث، فاقتربت مني بحماس ولمعة جزل تتراقص بمقلتيها وعبير حب يفوح من شفتيها وهي تقول بانتشاء:

– لقد صارحني فؤاد بحبه أخيرًا وسيتقدم لخطبتي.

أخذت تقفز فوق الفراش أمامي كالأطفال فما كان مني سوى الضحك من أعماق قلبي المكلوم، وللحظات

عصير الكتب
غَوْث

نسيت حزني إذ فاقته سعادتي لفرحتها وأنا أرى ثورة حماسها المتقدة،

لطالما أحبت فؤاد وكانت تنتظر اللحظة التي يصارحها فيها بحبه، ولكنه فؤاد لا يتغير، دائمًا ما يحتاج لمن يدفعه للخطوة الأولى، كنت أعلم بحبهما المستتر خلف رداء الصداقة وإن كان كلاهما لا يعرفان، ملأ قلبي كثير من الفخر وأنا أرى سعادتها التي كنت سببًا فيها بشكل أو بآخر، فأنا على يقين أنه لولا تشجيعي لفؤاد لظل حبه حبيسًا داخل جدران قلبه.

******

هاجمني الحزن وحلت الكآبة ضيفًا ثقيلًا على قلبي ما إن غادرت ليندا وبقيت وحيدة داخل غرفتي، تنهال علي الذكريات كالسوط ليترك أثره فوق قلبي المثخن إثر طعنات الاشتياق، أخذ وجه إياد الضاحك يتمثل أمام ناظري بوضوح، أتذكر أول مرة استطاع فيها القراءة دون أي مساعدة مني، حينها وقف يرقص كالأطفال وأهداني كلمات حب وامتنان كانت الزرعة التي أنبتت في قلبي الورود، يتناهى إلى مسامعي صوت ضحكاته الطفولية عندما تسقط الشوكة من يده عن قصد كي أغضب منه وتحمر أذاني غضبًا دون أن

عصير الكتب

أحاول إظهار شيء من انفعالاتي فيضحك ملء فيه وهو يقول بسعادة:

أحب إحمرار إذنيك كثيرًا، تذكريني بعروسة المولد " التي جلبتها لي كنت أحب أن أبدأ بأذنها"

أراني رغم سخطي منه أبادله الضحك ويتلاشى غضبي بسرعة كالبخار في الهواء.

لفظني السرير إذ أخذت الذكريات تجتاح عقلي فشعرت أنني أختنق، توجهت للمطبخ أعد كوب شاي كي يغير شيئًا من مزاجي،

عصير الكتب.
غَوْث

تساءلت ماذا لو عرفت أمي أن ابنتها تحب رجلًا متزوجًا؟ هل ستغضب وتعقد العزم على عدم مصافحتي مرة ثانية؟ أم أنها ستلقي بصفعة مدوية فوق وجهي ناعتة إياي بعديمة التربية؟ قبض الألم على قلبي بقبضة من حديد، صدقيني يا أمي لم أقصد أن أحبه، فمن منا يملك على قلبه سلطانًا؟ لو كان بيدي الخيار لاخترت ألا يحدث أي شيء من هذا في الأساس، لاخترت ألا أصاب معه بهذا الحادث.

أخرجني صوت الغلاية الكهربائية معلنة عن انتهاء مهمتها، صببت كوبي الشاي لأحتسيه برفقة أمي كي

عصير الكتب
غَوْث

أتخذها ذريعة لسرقة بعض الوقت معها، اتخذت مكاني جوارها وأنا أمد إليها يدي بقدح الشاي، حملقت في حتى شعرت نظراتها تخترق أسوار مقلتيّ، لتقول بحنان:

– ما بكِ يافريدة منذ أن عدتِ من سفرك والهم يأكل روحك حتى ذبلت ملامح وجهك وكأن كربًا ما حل بكِ.

نظرت إليها بضعف، آه لو أستطيع أن أخبرها بكل شيء، لمَ دائمًا العلاقة بين الأبناء والأهل على هذه الدرجة من الصعوبة؟ لمَ لا يصبحون أصدقاءً فلا يخفي

عصير الكتب

أحدهم عن الآخر شيء؟ أتمنى حقًا أن أخبرها فينزاح جبل الهموم من فوق صدري، ولكن ماذا أخبرها، لقد كذبت عليكِ يا أمي فلم أكن مسافرة وإنما وقعت بحب رجل متزوج؟

ألقيت بنفسي داخل صدرها بوهن، أبحث عن شيء من الطمأنينة لروحي المضطربة، شيء من المواساة لقلبي المكلوم، شيء من الحنان المنبعث عبر يديها الدافئتين وهما تسمحان فوق شعري إلى أن غلبني النعاس.

****

عصير الكتب
غَوْث

– فريدة هناك شخص بالخارج ينتظرك يقول إنه زميلك بالعمل.

تطلعت لأمي بعين واحدة جاهدت للتخلي عن الحلم الجميل الذي كنت أعيشه فيما ظلت الأخرى متمسكة ببقاياه، خرج صوتي ناعسًا لم يتخلّ عن إمارات النعاس بعد:

–أي زميل عمل هذا؟

–لا أعرف هيا انهضي لتقابليه فهو بانتظارك منذ مدة.

عصير الكتب.

تململت بفراشي وشبح ابتسامة يتلاعب فوق ثغري جراء ما أتذكره من حلمي الجميل، كنا أنا وإياد زوجين دون أية معرقلات أخرى

وكأن العالم خلا إلا من سوانا، دلفت الحمام أزيح بقايا النوم العالقة بأهدابي وعقلي يعمل على إعادة مشاهد الحلم الذي تمنيت من أعماقي لو كان حقيقة، أخجل لأمنيتي التى تنعدم من الأخلاق، ولكن أنىّ لها أن تتحق، إذن ما الضير أن أعيش بأحلامي ما لا أعيشه بواقعي؟

عصير الكتب

غَوْث

بينما كنت أرتدي ملابسي حتى شعرت بشيء ما داخل جيب بنطالي، تاهت أنفاسي وأنا أخرج حبوب الدواء التي سرقتها ونسيت أمرها،

رفعت شعري وخرجت من الغرفة عازمة أن أطلب مساعدة فؤاد في معرفة ماهية هذه الأدوية فله كثير من المعارف وسيتوصل لمكوناته بالتأكيد، سمعت همهمات قادمة من غرفة الصالون فتوجهت نحوها يسبقني الفضول لمعرفة زميل العمل هذا، ولكني تسمرت مكاني وتعالت ضربات قلبي حتى كدت أشعر به يثب بين ضلوعي، لم يكن زميل العمل سوى (إياد) عصفت بي

عصير الكتب
غَوْث

كثير من المشاعر وهو يقف لملاقاتي وعلى ثغره بسمة وقعت على قلبي كشربة ماء بعد ظمأ، فلم أفهم أهي فرحة لرؤيته، أم تعجب لمجيئه هنا؟ ولكن كيف جاء من الأساس؟ رباه هل أخبر أمي شيء؟ نظرت إليها فوجدت على ثغرها بسمة خفيفة فأدركت أنها ليست بغاضبة، انتبهت ليده الممدودة نحوي فمددت يدي على الفور وأنا أطمئن نفسي فقد قالت أنه زميل عمل، ولكن لمَ قال لها هذا؟

عصير الكتب

ذهبت أمي لتعد لنا كوبي قهوة ليلتفت نحوي بعينين باسمتين وشيء كالحنين يموج بمقلتيه أو هكذا خُيل إليّ، كدت أسأله عن سبب مجيئه لكنه بادرني قائلًا:

-كيف لكِ أن تتركيني وتذهبين هكذا وأنا في أمس الحاجة إليكِ؟

نظرت ليدي خجلًا وأعرف أن خداي الآن قد كساهما اللون الوردي مما جعل خجلي يتضاعف فأجبته وقلبي يغلفه الفرحة لكونه جواري:

-إياد أنت لا تعرف شيئًا.

-كل ما أعرفه أنني بحاجة إليكِ، ولا يوجد سواكِ أحتاج إليه بحياتي.

دق قلبي بعنف أصبحت دقاته كالناقوس، أدرك جيدًا أنه يعي كلماته ولكنه لا يقصدها كحبيب لحبيبته، مما زاد خجلي وحزني لما أكنه له من مشاعر، أخذت أفرك يداي وسألته كما لو أنني أهاجمه:

-كيف عرفت عنوان منزلي؟ وكيف أتيت وأنت لا تجيد القيادة؟

-ساعدني الخادم.

عصير الكتب

-كيف؟

-في البداية إنتظرت جهاد لأسألها عن عنوانك ولكنها لم تخطو المنزل منذ رحيلك وحاولت مهاتفتها بمساعدته ولكنها لم تكن لتجيب فأفضيت له بمكنون نفسي وأنني بحاجة للوصول إليكِ، فجلب لي حائط الفيسبوك الخاص بكِ وتوصلت إلى أن ليندا تكون صديقتك فأهدتني عنوانك بعدما لم تقبلي طلب صداقتي، وهو من أحضرني إلى هنا ولكنه ينتظر بالخارج.

عصير الكتب

كسا الحزن وجهه كما لو أنني رفضت صداقته على أرض الواقع، لم أتعجب من موقف ليندا إذ كانت تعيب على ردة فعلي بترك المنزل، قلت له كمن يواسي طفلًا:

-اعذرني لم أتفحص المحادثات.

أشرق وجهه بابتسامة، جزلة وعلق بغمزة من عينيه:

-أنتِ لست ممرضة إذن.

شعرت وكأن دلو ماء سكب فوقي فاستبد بي حرج شديد، خفف من وطأته وهو يردف بحماس:

عصير الكتب

غَوْث

-إذن أنت ابتكرت حيلة الممرضة لتكوني بجانبي أليس كذلك؟

رسمت البسمة نفسها فوق ثغري وأنا أتذكر كلماته لأمي بأنه زميل عمل،ووقع في نفسي أنه أدرك كذبي وعفا عني الحرج بما قاله، حسنًا يجب أن أعترف إنه أكثر مني ذكاءً.

جاءت أمي بفنجان القهوة، وانسحبت كعادتها لتدع لنا مجالًا للحديث،

عصير الكتب
غَوْث

ناولته فنجان قهوته ومكثت أعبث بأصابعي مطرقة بخفر، لم أنبس بحرف ولكنه بادر بالحديث ثانية دون أن أنظر إليه:

-لقد حدث شيء ما.

صمت هنيهة كأنه ينتظر التفاتي نحوه لكني لم أفعل، فأكمل حديثه بنبره منخفضة كأنما يفشي سرًا ما:

-لقد رأيت الحادث مرة أخرى بمنامي، ولكن هذه المرة رأيت نفسي بمنزل ما وروحي خارج جسدي تراه وهو يحترق وكان يطلب مني المساعدة

عصير الكتب

التفت إليه بكامل جسدي وسألته :

-هل تتذكر شيئًا عن الحريق؟

أجاب بخيبة :

-لا لم أتذكر شيئًا.

-هناك حريق ما قد نشب بك ولكني لا أفهم ما علاقة هكذا بكونك تحتاج المساعدة، ولِمَ تحتاجها من الأساس إن كنت صحيحًا الآن.

كنت أقول هذا وأنا أشير لجسده، لكنه تجاهل حديثي وقال بنبرة غريبة وهو يحدق بعينيّ:

–أريد رؤية الرسومات التي رسمتها قبل أن تصلي إليّ.

لم أفهم سبب طلبه ولكني رجحت أنها لا بد وكونها طريقة تساعده على التذكر بشكل أو بآخر، أتيت له باللوحات من غرفتي، تأملته وهو يتطلع إلى رسمته عاقدًا حاجبيه، أمسك اللوحة بين يديه بعدما ألقى على المنزل ولوحة السيدة والسيد الريفين نظرة خاطفة، رفع مقلتيه ببطء من فوق اللوحة لينظر نحوي بوجوم قبل أن يُطلق رصاصته:

–فريدة هذا الرجل ليس أنا.

عصير الكتب
غَوْث

٨

شخص آخر

–فريدة هذا الرجل ليس أنا.

حملقت بوجهه المتخشب، دنوت منه أنظر للوحة بدوري وكأني لم أرها من قبل، رأيت وجهه يتطلع إلي حاملًا الطفل، تفاقم الاستنكار داخلي وتوجهت لإياد بالحديث:

–إياد إنه أنت بشحمك ولحمك.

عصير الكتب
غَوْث

هز رأسه نافيًا ومازالت عيناه مثبتتين فوق رسمته، علق بصوت عميق وكأنما يأتي من قاع بئر وهو يشير للشامة:

-انظري إلى هذه، أنا لا أملكها.

انعقد لساني وهاجمتني ذكريات تعجبي من هذه الشامة، لم أكد أنطق حتى جاءني صوت إياد المتأني فبدا كمن يحاول ربط الخيوط:

-قلتِ أنكِ رأيتي طفلين بحلمكِ، وهذا إحداهما.

عصير الكتب

غَوْث

أومأت برأسي مؤيدة في حين كان هو يتأمل اللوحة عاقدًا حاجبيه، علق دون أن تتغير نبرته:

-هذا الطفل يمتلك شامة الرجل نفسها، وبنفس الموضع.

وكأن كلماته كانت شعاع النور الأخير من ضياء الشروق، انكشف كل شيء وتبدت الحقيقة الواضحة من الأساس، نظرت لجبهة إياد الخالية من أيه شامة فتبدى لي مدى غبائي،

عصير الكتب
غَوْث

تطلع إياد إليّ وأدركت من نظرته أنه قد كشف ما كشفته للتو،

امتعض وجهه فجأة ثم خرج صوته مختلجا:

-الطفلان أخوان، إحداهما أنا والآخر هذا الذي باللوحة.

خفق قلبي بهلع ومشهد النيران تحتل عقلي، فأردف إياد وكأنما طاله ما يعتمل قلبي:

-هو من يحتاج المساعدة وليس أنا.

****

عصير الكتب

غَوْث

تلاعبت بنا الرياح حينما وقفنا أمام المنزل المحروق، نظرت لإياد فوجدت الألم وقد ترك علاماته فوق صفحة وجهه، سألته بلهفة:

-هل ذكرك المنزل بشيء؟

حرك رأسه نافيًا وهو يقول بقنوط:

-لا أتذكر شيئًا ولكن منظره يضفي لقلبي شيئًا من الرهبة، خوف، قلق، رعب، مشاعري مضطربة ولكن انقباضة قلبي لا تنبؤ بالخير.

عصير الكتب.
غَوْث

أمسكت يده أضغط عليها، ابتسمت له وجاهدت ليخرج صوتي ثابتًا كي أبث له شيئًا من الطمأنينة:

-إن كنت قد غيرت رأيك بشأن الولوج للمنزل ورؤيته من الداخل، يمكننا الانتظار للغد أو أي يوم آخر.

تحرك بنظراته نحو المنزل ثانية، ولاحت نظرة تصميم بعينيه وهو يدنو من بابه بخطوات ثابتة:

-بل سندخله الآن.

كنت منشغلة بتأمل ملامح إياد وأنا أخطو داخل المنزل هذه المرة، تُرى هل سيكون سببًا كي يتذكر أيما شيء؟

عصير الكتب

عصير الكتب.

تمنيت حقًا لو تعود إليه الذاكرة، فحينها سيتذكر ما حل بأخيه، ولا بد سينكشف كل شيء.

تشبثت به بفزع حين اندلعت النيران حولنا دون أية مقدمات، نظرت لإياد فوجدته يجذبني إليه بدوره كي يحميني وعلى وجهه إمارات الخوف فأدركت أنه يرى ما أراه، أردت طمأنته أن هذه النيران ليست حقيقية

ولكن صوتي خانني حين أبى أن يخطو خارج حدود حنجرتي، رأيته يهتف بي دون صوت وقد احتقنت عيناه،

كادت عروق حنجرته تنفجر إثر ثورة الدماء بها، لم أفهم ما يود قوله لكنني استشعرت خطورة الأمر، تركني ورأيته يتوجه لركن ما، أردت الهرولة وراءه وحال دول ذلك ثقل قدمي والتصاقهم بالأرض، الأمر يتكرر ثانية ولكن هذه المرة إياد معي، خنقني الخوف وسيطر علي القلق،

تتبعت إياد بنظراتي المتوجسة فشهقت دون صوت حين رأيته يخرج نفسه من أسفل أثاث مكسور، وإن صح التعبير يخرج الشخص الذي يطلب المساعدة، هم بإخراجه كليًا ثم يتغير كل شيء،

عصير الكتب.

تختفي النيران فجأة، يسقط إياد أرضًا، وصرخة فزعة مدوية تخرج من حنجرتي لتشق سكون السماء.

****

هرعت نحوه أساعده على النهوض، غاص قلبي حين وجدت جسده يرتعش بضعف والحما تغزو جسده، أسندته بينما راح يهذي "لقد احترق أخي.. لقد احترق أخي"

أسندته إلى إحدى درجات السلم ما إن خرجنا من المنزل، جلست أمامه أمسح حبات العرق من فوق

وجهه بوجل، كانت عيناه تحومان وشفتيه ترتجف وما زال يهذي، أخذت أمسح على رأسه أغالب دموع قهر لحاله، ولكن صوتي خرج باكيًا مرتجفًا:

–هل تذكرت أخوك يا أياد؟

حملق بي بتوهان، وكأنه انتبه لوجودي للتو:

–لقد رأيته يافريدة.. يشبهني كثيرًا.. أعلم أنه أخي.. لقد احترق هنا..

عصير الكتب

ضممته لصدري بهلع حين رأيت دموعه للمرة الأولى، شاركته البكاء بينما يتشبث بي بقوة وكأنه يخشى أن أضيع منه، جاء صوته ضعيفًا يحمل بقايا بكاء:

-خذيني للمنزل يافريدة ولا تتركيني ثانية أرجوكِ.

كدت أدافع عن نفسي وأخبره أنني تركت العمل ولكنه بادرني:

-أرجوكِ، فأنا في أكثر الأوقات حاجة إليكِ.

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

بنظرة عينيه الراجية، ومشهد ضعفه الذي أتى على ما تبقى فيّ من قوة ما كان مني سوى الموافقة وأخذه للمنزل دون أن أفكر بشيء آخر.

تنهدت بارتياح، وعم السرور قلبي حين أدركت أن جهاد ليست بالمنزل، وضعت إياد بالفراش بمساعدة أم يوسف التي ذهبت لتحضر له الطعام، جلست جواره أبدل الكمادات من فوق رأسه الذي أخذ يفور ويغلي من الحمى، نظر إلي بضعف وقال من بين هزيانه:

–السر بحوزة جهاد.

غَوْث

أدركت مقصدته فعلقت:

-رؤيتي لأم يوسف ذكرتني بالدواء، سأطلب من فؤاد أن يحلله لي ويعرف ماهيته.

علق يضعف وكأنه تذكر شيئًا ما:

-هل يستطيع أن يحضر لي جهازي تنصت؟

زويت ما بين حاجبي، وتعجبت لمطلبه، فخرج سؤالي مُباغتًا:

-لمَ؟

أغمض عيناه بعد أن أجهده الإعياء:

-حاولي أن توفيري لي اثنين وستعلمين كل شيء.

تنهدت بأسي دون أن أجهد نفسي بطلب تفسيرات أكثر وأنا أفرك عيني وصورة النيران تتقافز أمامها، قلت بهمس وكأنني أحدث نفسي:

-يجب أن أطلب من فؤاد أن يحضر لي الألوان، علنّي أرسم شيئًا يفيدنا.

أرهفت السمع لإياد إذ كان صوته همسًا:

عصير الكتب

-لا داعي فسترسمين جهاد كرة أخرى، يجب أن نعرف منها أين أخي وكيف احترق؟

تطلعت إليه فوجدت الألم يجثو فوق ملامحه وإن غابت عيناه،

سألته وأنا أحاول أن أنتقي الكلمات:

-ألم تثير رؤيتك لأخيك شيئًا في ذاكرتك؟

باعد بين جفنيه ببطء ثم رمقني حينًا قبل أن ينطق لسانه:

عصير الكتب

-أصبحت متيقًا من أن جهاد لها علاقة بأمره، مكان ما بقلبي أنبأني أن وراءها سر غامض.

قطعت أم يوسف حديثنا عند دلوفها الغرفة حاملة الطعام، لم أرد لإياد مزيدًا من التعب فأخذت أطعمه بيدي وما لقيت إعتراضًا منه، أنهى طعامه ثم غرق بالنوم.

****

أول شيء فعلته بصباح اليوم التالي هو أن هاتفت أمي التي ما انفكت تلقي بتقريعها وتوبيخها لي، بعدما

عصير الكتب.

سافرت –على حد علمها– أمس دون موافقتها،

تبادلت معها أطراف الحديث لينتهى بدعائها لي

بعدما أملت قلبها وأخبرتها أنني بصدد تحقيق حلمي

وحلم أبي.

زفرت بضيق ذرات ندم ولوم،

أصبحت كثيرة الكذب في الآونة الآخيرة، تنهدت

بتعب وذكرت نفسي أن غايتي نبيلة، تناولت الهاتف

مرة أخرى لأهاتف فؤاد وعلى زاوية فمي ابتسامة

ساخرة، متى كان الكذب وسيلة لبلوغ الغايات النبيلة؟

عصير الكتب

–حسنًا يافؤاد أنا بانتظارك.

أغلقت الهاتف بعدما طلبت من فؤاد جهازي تنصت عن بعد وأخبرته بشأن الدواء، خرجت من الغرفة على إثر صوت ما بالخارج تناهى لمسامعي، فرأيت إياد يقف بمنتصف الصالة وعلى وجهه إمارات غضب لم أرها به من قبل، دنوت منه ببطء وكأنني أقترب من لجم ما، خفق قلبي بفزع عندما حملق بي فقال من بين أسنان مطبقة:

–يجب أن نذهب الآن.

سألته وأنا أجاهد قبضة يديه وهو يسحبني خلفه خارجين من المنزل:

-إلى أين ولمَ هذه العجلة؟

أجاب دون أن ينظر نحوي ولكن شرارات غضبه تطايرت في الهواء وبلغتني:

-لقد خرجت جهاد مع عندان للتو يجب أن نعرف إلى أين يذهبان يوميًا.

اتخذت مقعدي خلف المقود وجلس جواري بعنف، رأيت سيارة عدنان فتتبعت أثرهما، كنت ألقي نظرة

عصير الكتب
غَوْث

جانبية على إياد بين الحين والآخر، لم يتخل عن غضبه المتقد، أهذا الغضب سببه الغيرة؟ لم أره مسبقًا يحمل هذا الكم الهائل من السخط،

حتى إنني أشعر أنني لو وضعت يدي فوق كفه لاحترقت من نيرانه.

وقفت سيارتهما أمام إحدى العمارات العملاقة، فوقفت بدوري ليقفز إياد من السيارة، كدت أذهب خلفه لكنه هتف بحدة:

–لا تتركِ مقعدك سأذهب وحدي.

عصير الكتب

عصير الكتب.

سكن جسدي، ومكثت مكاني بلا حراك، تكرر صدى صوت إياد وهو يطلب مني البقاء مكاني، ندت عن عيناي دمعة كبحتها بمهدها، آلمني أن يكون كل هذه الثورة لغيرته عليها، أيصرخ بي لأجلها؟

كيف يجرؤ على الصراخ بوجهي؟ لم يفعلها أحد من قبل؟ وضعت وجهي على المقود أمامي بهوان، لمَ تخدعين نفسك يا فريدة؟ أنت غاضبة من غيرته عليها لا أكثر من هذا ولا أقل.

رفعت رأسي بهلع حين أتخذ مقعده جواري بعد عدة دقائق، تأملت وجهه فكان الغضب يأكله، سألته بجمود:

-ماذا هناك؟

كانت نظراته تائهة، يحدق في اللاشيء، خرجت نبرته محترقة كاحتراق روحه دون النظر إلي:

-هما على علاقة.

حملقت به أعي ما قاله، خرج صوتي مستنكرًا:

-ماذا؟ كيف عرفت؟

رنا ببصره نحوى وقال بهدوء:

-يحبان بعضهما، بل إن الجميع يعرف هذا ويعلنونه بالعيادة،

عيادتي التي أصبحت باسمه، اسم عدنان، عرفت كل هذا من بواب العمارة.

بحثت بمقلتيه عن حزن لكني رأيت نيران الغضب تتأجج حتى كادت سخونتها تلفحني، بسطت يدي بتردد ووضعتها فوق كفه وقلت بأسي أبحث عن كلمات مواسية:

عصير الكتب
غَوْث

-لا تُحزن نفسك فهي لا تستحقك، وأمر العيادة سهل فحين تستعيد ذاكرتك ستأخذها بحكم من القانون.

اتسعت عيناه قبل أن يجيب بما لم أتوقعه على الإطلاق:

-هل لكِ أن تُعجلي فؤاد ليحضر أجهزة التنصت؟

تعجبت لطلبه ولكني أومأت موافقة ثم هاتفت فؤاد للمرة الثانية.

****

عصير الكتب
غَوْث

جلسنا ثلاثتنا على إحدى الطاولات بكافيتريا أرشدنا إليها فؤاد، أعطيته حبات الدواء تحت نظرات إياد الشاردة، انتشله فؤاد من أمواج غضبه حين قدم إليه جهازي التنصت الواحد منهما بحجم علبة كبريت وأطلعه على طريقة عملهما وأن الجهاز يعمل لمدة عشر ساعات دون أن يحتاج إلى شحن، ربت إياد على كتفه بامتنان وهو يشكره، حادثني فؤاد:

–ل ل لقد اشتكت منكِ والدتكِ، ولكني أأأخبرتها أن عملك مهم وعاجل.

ابتسمت له بوهن:

عصير الكتب

غَوْث

شكرًا لك يا فؤاد هي جد غاضبة مني

أردف:

–ولكنها أخبرتني أنها تشك بتصرفاتك ولا تعجبها حالتك وتخشى عليكِ.

تنهدت بألم ووغزني ضميري لكثرة كذبي عليها، رنت ببصري لإياد الذي بدا شاردًا بعالم آخر، سألته بجمود غلفني منذ أن هتف بوجهي:

–لم تخبرني فيمَ تحتاج أجهزة التنصت هذه؟

عصير الكتب
غَوْث

تحركت مقلتاه وثبتتا فوقي، أجاب بنبرة مختلفة عنه:

-سنتجسس على جهاد:

حملقت به قبل أن أسأله لأعي مدى غبائي بمجرد تلفظي به:

-كيف؟

مال بجزعه للأمام عاقدًا يده فوق الطاولة، جاءت نبرته أكثر جدية من أيما وقت مضى:

عصير الكتب

-سنجد طريقة لأضع واحدًا بغرفتها وواحدًا بالعيادة، أما أنتِ فستدفعينها إلى الإعتراف بما تُخبئه.

اكتفيت بالنظر إليه ولم أعقب، فاستأنف حديثه:

-سنضعها تحت ضغط التهديد، ستخبرينها أنكِ تعرفين طبيعة العلاقة بينها وبين عدنان، لنرى كيف ستجيب.

سألته بحيرة:

-ماذا إن سألتني كيف عرفت؟

رمش يواري ما يعتمل داخله من غضب:

عصير الكتب
غَوْث

-أخبريها أنكِ ذهبت لعيادتي بالصدفة وهناك سمعتي ما يُقال بشأنهما.

-ولمَ أفعل هذا إن كنا سنضع أجهزة التنصت؟

عاد بظهره للخلف وهو ينظر لنقطه ما بالهواء:

-هذا أمر نسبة حدوثه ضعيفة، فالعيادة مكان عمل مهما كان فسيكون من الصعب معرفة العلاقة بينهم وإلام يخططون،

وما الذي تخفيه هذه الجهاد، بالإضافة لكونها بالكاد تجلس بغرفتها:

عصير الكتب
غَوْث

التفت إلى فؤاد ليرمقه بحدة وكأنه ينظر لبعد آخر، قال ضاغطًا على حروف كلماته:

–فؤاد هذا الدواء به شيء ما، أرجوكِ حاول أن تساعدني بأقرب وقت.

اكتفى فؤاد بإماءة بسيطة من رأسه، وغرق كل واحد بأفكاره بينما تسمرت مقلتاي على الرجل الذي ظهر من العدم خلف فؤاد،

قادمًا من بعيد إلى أن اتضحت ملامحه أكثر وأكثر، كان الظل بعدما تلون بهيئة أخ إياد، يحملق بي بألم

يسكن بين جنباته اختفى كل شيء حولي حين ظهرت جهاد من العدم، تتقدم نحوه بغنج أثار الاشمئزاز بنفسي، وبحركات بطيئة كانت تحرك وجهه المحدق بي إليها، همت بتقبيله ولكن عدنان ظهر من العدم، سحبها من ذراعها لتلتفت إليه قبل أن تلقي بجسدها داخل صدره باستسلام تام، حملق هو بي قبل أن يخرج صوته العذب دون أن تتحرك شفتاه فأتى كما لو كان نابعًا من داخلي:

"ليست الحقيقة هي ما نراه دائمًا "

عصير الكتب

تبخر في الهواء وتلاشى ثلاثتهم بالتزامن مع عودة كل شيء لأصله، عبأت رئتي بالهواء بعدما بدأ عقلي يثور من توقفي بإهدائه الأكسجين اللازم، مسني ماس كهربي عندما لمس إياد يدي متسائلًا بتوجس:

-فريدة هل أنتِ بخير؟

تأملت ملامحه التي تشبه أخوه إلى حد صادم، نبرته تختلف قليلًا ولكن بها من الحنان نصيب أكبر، هل أنا بخير؟ لا أعرف، أشعر وكأن الزمن رماني بدوامة ليس لها بداية ولا نهاية، ضرب الصداع صدغي وكأن هناك مطرقة حديدة لا تنفك بالطرق فوق رأسي،

أومأت له أنني بخير، جاهدت لرسم بسمة فوق ثغري بينما عقلي يكاد يختنق لكثرة الأسئلة التي تكالبت عليه، هل كانت جهاد تخون إياد مع أخيه قبل أن تخونه مع عدنان؟ أهددها أن يخبر إياد بحقيقتها فقامت بالتخلص منه وحرقه؟ لمَ قد تفعل إحداهن هذا؟ ولمَ تزوجت إياد إن كانت لا تحبه؟

٩

الحقيقة

جافاني النوم، جلست فوق الفراش أضم قدمي ناحية صدري المتوجس، أحدق في اللاشيء، العتمة تُغرق الغرفة تمامًا مثلما أغرقت روحي، قلبت بصري في الظلام حولي، هُيأ إلي أن عبق أبي يفوح بالأرجاء، عصفني الشوق فتلاطمت أمواج أوجاعي، هل هذا الثقل الذي يجثم فوق صدري سببه الاشتياق إليه؟ قمت من الفراش أفتح نافذة الغرفة كي أسمح لذرات

عصير الكتب
غَوْث

الهواء أن تلفح خدي علها تُطفئ شيئًا من حرارة صدري، لمَ أشعر أن هناك شيء مُفجع سيحدث لي؟

التفت بغتة حين تناهت لمسامعي صوت طرقات خفيفة على الباب، أرهفت السمع ووقفت شاخصة بصري نحو الباب تحت ضوء القمر، مرت ثواني قبل أن تتكرر الطرقات كرة أخرى، إذن أنا لا أتوهم، دنوت من الباب وبخفوت سألت:

- من هناك؟

– هذا أنا يا فريدة، ارتدي ثياب الخروج وأخري إلي.

عصير الكتب

صوت إياد الهامس المتلحف بنبرة الحذر زاد من توجسي، أنرت إضاءة الغرفة وارتديت ملابسي على عجل، بالرغم من الضيق الذي يجثم قلبي، والتوجس من رغبة إياد بلقائه في هذا الوقت المتأخر من الليل، لم أستطع أن أمنع نفسي من وضع الكحل داخل عيني وإلقاء نظرة خاطفة على هندامي قبل أن أخرج إليه.

وجدته ينتظرني تحت ضوء القمر، اقترب مني وطلب ألا أصدر صوتًا بإشارة من يده، قادني لخارج المنزل لتتفاقم تساؤلاتي.

–إلى أين؟

عصير الكتب

-سنذهب للعيادة كي نضع الجهاز الآن.

قلت وأنا أتخذ موضعي خلف مقود السيارة:

-وكيف سنفتح الباب؟

لوح بمفتاح أمام ناظري، قائلًا بفخر:

-سرقت هذه من غرفة جهاد بينما كانت تغط بنوم عميق، وأيضًا وضعت واحدًا بغرفتها.

نظرت إليه بدهشة، كيف له أن يتغير بهذا الشكل وبهذه السرعة، إياد المضطرب الخائف أصبح أكثر ثقة ويضع الخطط وينفذها دون مساعدة مني، سألته:

-من أين لك بفكرة أجهزة التنصت هذه؟

-رأيتها بأحد الأفلام التي شاهدناها سويًا.

ابتسمت لوجهه الضاحك بينما شعور بأن هناك شيء سيحدث داهمني مرة ثانية بشدة وأكثر فجعًا.

****

فتح إياد الباب ليصدر صوتًا كأنه يتحجج من تطفلنا، أنار الضوء قبل أن يلتفت نحوي موضحًا:

-هذه عيادتي ولا يوجد شيء خاطيء بما نفعله.

لابد وأنه شعر بما يدور بخلدي، ولكن خوفي الأعظم كان إزاء شعوري بخطر ما يحدق بنا، مسك بيدي دون مقدمات لندخل غرفة المكتب الخاصة بالكشف، اندفع بحماس يبحث عن مكان خفي يضع به الجهاز كي لا يلاحظه أحد، تأملت الغرفة الباردة من حولي، أضفى اللون الأبيض لحائطها شيءً من الفراغ، لمَ لم يختر إياد أيما لون مبهج للأطفال أكثر؟ قادتني قدماي نحو سرير الكشف، فطافت بعقلي ذكرى ليوم اصطحبني فيه أبي لطبيب أطفال ولم تفلح توسلاتي المستميتة وبكائي المتواصل بردعه،

عصير الكتب

شعرت إذ ذاك بسخط عظيم ناحيته، وبسذاجة الأطفال قررت مخاصمته للأبد، ولكني سرعان ما نسيت قراري عندما دلفنا لغرفة الطبيب واندفعت أختبئ داخل أحضانه.

–ما هذا؟

انتشلني صوت إياد من سيل الذكريات المفاجيء، التفت إليه فوجدته يحمل صورة بين يديه ينظر إليها عاقدًا ما بين حاجبيه، اندفعت نحوه أنظر للصورة بدوري، كانت فتاة بعمر السابعة أو الثامنة حسب

عصير الكتب
غَوْث

تخميني تنظر للمُصور بأعين رسمتها السعادة وشفاه رسمتها البراءة، خفق قلبي وارتعش صوتي:

-تُشبه جهاد كثيرًا.

طفت ذكرى بعقلي فور أن خرجت جملتي، السيدة والسيد الريفين، والطفلة التى أخبرتنا بها.

أتاني صوت إياد من بين أنفاسه المختنقة:

– هل هي ابنتي؟ أشعر باحساس غريب يجتاحني، وكأن بعينيها شيء مني، شيء يدفعني إلى التحديق مطولا بوجهها.

عصير الكتب
غَوْث

التفت نحوي بأعين تائهة وروح ضائعة كضياع ذاكرته:

-أتفهمين ما يعتمل داخلي؟

كدت أخبره أن ليندا سبق ورأتها معه بنفس المنزل، ولكن البرواز المعلق على الحائط خلفه جذب انتباهي، دنوت منه أتيقن مما رأيته، وقفت على أصابع قدمي كي أفلح في التقاطها، اقترب إياد مني وشاركني النظر إليها قبل أن نصيح معًا:

- هذه صورة أخي واسمه!

عصير الكتب
غَوْث

– هذه عيادة أخوك.

حلق الصمت فوقنا ونحن ناظرين لبعضنا البعض،

سألته:

–ما معنى هذا؟

أجاب بتيه:

–لا أعرف.

–لمَ ألحقت بك اسم أخوك؟

–ما اسمي إذن؟

عصير الكتب

غَوْث

-كيف سُجلت باسم إياد بالمشفى؟

- يا إلهي من أنا سأجن.

-أنت لست أياد، وهذه ليست عيادتك أنت.

- ولكني متأكد من كونه أخي، جزء ما بعقلي يستوعب هذا جيدًا.

خرج صوتي باكيًا:

- لم إذن ألحقت بك اسم أخوك؟

عصير الكتب
غَوْث

– هل تخلصت جهاد من أخي لتأخذ عيادته؟ ولمَ أخفت أمره عني؟ بل لمَ أخبرتني أنها عيادتي من الأساس إن كانت تنتوي أخذها آخر الأمر؟

اكتفيت بالتحديق به بينما أجاهد لتجاهل الصداع الذي أخذ ينخر بعظام رأسي نخرا، تذكرت آخر مرة ظهر لي فيها إياد وتذكرت ما فعلت جهاد معه، ترددت جملته بعقلي

"ليست الحقيقة دائمًا كما نراها "

أكاد أُجزم أن ماسًا كهربائيًا صعق رأسي، اهتز جسدي بألم وجزء من عقلي يصل إلى حقيقة ويصدقها، ترنح جسدي وكادت قدماي تخونني،

تحاملت على نفسي ونظرت لإياد الذي لم يكن أحسن مني حالًا، خرج صوتي من بين شفتي وكأنه صوت شخص غيري:

- جهاد ليست زوجتك.

لزت بالصمت حينًا أدع لعقله فرصة كي يستسيغ ما قلته قبل أن أهم بإكمال حديثي، لكن الدهشة كانت من نصيبي حين بادرني:

- زوجة أخي التي خانته، ثم تخلصت منه قبل أن أستطيع الذهاب إليه وثنيه عن قتلها، إذ كان الحظ من نصيبها حين قمت بحادث وفقدت به ذاكرتي.

عصير الكتب
غَوْث

١٠

إغاثة ميت

انهار إياد ليخر راكعًا بضعف، لتداعى آخر ما تبقت لي من قوة مزعومة اندفعت نحوه بقلق:

-إياد ماذا بك تماسك.

نظر إلي بضعف لُيعلق:

-اسمي إيهاب ولستُ إياد يا فريدة:

ضربت الحيرة رأسي وأنا أحملق بعينيه الذابلتين، تخلت الحياة عنهما فذبلت زهورها، وتلاشى رحيقها، ليصل من موتهما شيء لقلبي، رن هاتفي فشق صوته سكون الليل، كان للخوف اليد العُليا هذه الليلة، إذ أمسك بقلبي ليعصره بين كفيه حين رأيت رقم فؤاد ينبر الشاشة، تنقلت ببصري بين الهاتف والشخص الذي تخلت عنه الحياة للتو، تحامل على نفسه وتوجه خارجًا من العيادة فتبعته مجيبة على فؤاد الذي صرخ بفزع:

–ف ف فريدة هذا ليس بدواء، ه ه هذا سم بطيء المفعول، ي يجب أن ن نذهب بإياد إلي طبيب بأأأسرع وقت.

أغلقت الهاتف بوجهه مثلما أغلقت الدنيا أبوابها بوجهي، هوة عميقة من الفجع سقط بها قلبي، تألم جسدي مشاركًا روحي المكلومة عذابها، رنت بأنظاري التائهة نحو إيهاب –كما قال لي– فكان تائهًا بدوره، اتخذ هو المجلس خلف مقود السيارة، ركبت بجواره وكنا كالسائرين بالمنام، نعم هذا كابوس لا شك، سألته:

عصير الكتب

- إلى أين نحن ذاهبان؟

أجاب بثبات لمس قلبي الضعف الذي يواريه :

- لقد ذهب إليها إياد هذا اليوم بعدما اكتشف خيانتها له، لا بد وأن جثته هناك بعدما أحرق الأوغاد المنزل، ما زالت روحه عالقة ويود المساعدة.

نظرت للطريق أمامي الذي أخذ يتآكل تحت عجلات السيارة، كانت المشاهد تتسارع أمام ناظري مثلما تتسارع قراءة عداد السيارة وكأن هناك شخص يتحكم بالإشارات المُرسلة لعقلي فيدس بها ما لم يكن باشاراته

عصير الكتب.
غَوْث

يومًا، إياد يذهب ليأخذ ثأره من زوجته الخائنة، وهو بطريقه يخبر أخيه أنه تيقن من شكوكه وها هو بطريقه لرؤيتها متلبسة بشنيعة الخيانة، يذهب إليها ويصطدم بشجار مع عدنان –المفترض بكونه أعز أصدقائه– فيضربه الأخير بشيء حاد فوق رأسه ليخر صريعًا، يجن جنون جهاد التي تبدأ في الصراخ والعويل، ورسم حياة لها داخل جدران السجن، يُهدئها عدنان ويقترح عليها إضرام الحريق بالمنزل كي يختفي أثر كل شيء، دون تفكير توافقه الرأي، وبهلع يبدأ كليهما بنشر

عصير الكتب
غَوْث

الجاز ثم إشعال النار التي أكلت المنزل مثلما أكلت جسد إياد.

وعلى الخط الموازي يقفز إيهاب من مخدعه بعدما سمع صوت أخيه المصنوع من الغضب، يخرج تاركًا كل شيء يعبر عن شخصه تحت وطأة المفاجأة، يقود سيارته بأقصى سرعة عله يمنع أخيه مما هو مقدمًا عليه، يحاول مهاتفة جهاد كي يحذرها ليس خوفًا عليها وإنما خشية أن يفعل بها إياد ما يندم عليه ويقضي على حياته، ولكنه يصطدم بسيارة إذ لم يأخذ باعتباره إشارة المرور.

عصير الكتب
غَوْث

تتلقى جهاد مكالمة من المشفى إذ كانت آخر رقم يهاتفه إيهاب قبل الحادث، يخبروها بفقده للذاكرة فتتخذها ذريعة كي تخبر الناس بكونه زوجها بدل من عناء تبرير اختفائه المفاجيء، تخطط لقتله ببطء فتذهب إليها كل ملكيات زوجها

*****

انتهت المشاهد بالتزامن مع وقوف السيارة أمام المنزل المحروق، ترجل إيهاب من السيارة ليركض نحو المنزل، بينما تسمرت بمقعدي أنظر نحوه ومشهد اندلاع النيران به يتكرر داخل عقلي، كانت أنفاسي

عصير الكتب

ثقيلة إثر الثقل الذي حطّ فوق صدري، بجهد وتعب شديدين فتحت باب السيارة لأترجل منها بقدمين مرتعدتين، توجهت ببطء نحو المنزل وكأن أحدهم ربط أطنانًا من الحديد بهما، ماذا إن لم يستطع الأطباء من إيقاف مفعول السم بجسد إيهاب؟ هاجم الألم روحي ليئن قلبي وجعًا، هذا الكم الهائل من الألم لا يمكن له أن يكون داخل كابوس، غابت الرؤية أمامي بغتة حين تكالبت الدموع على مقلتاي وبسخاء- كسخاء العذاب الذي ألم بي- أخذت الدموع تجري على وجنتي شعرت بها حمم براكين تُلهب النيران بجسدي

كله، وقفت أستند بيداي على ركبتيّ، أشهق بقوة استبدت بي فجأة،. أشهق وكأن الهواء حولي ما عاد كافيًا،

انتصبت وما تخليت عن شهقاتي، أكملت مسيرتي نحو المنزل الذي ما يفصلني عنه سوى بضع مترات لتتحول إلى كيلومترات، دلفت للمنزل بقلب غير الذي ولجت به من قبل، قلب أهلكه الحزن وعصفت به نيران الفجع.

رأيته يجول بعنف داخل أرجاء المنزل، تتبعته بوجل وهو يصيح بلوعة:

- أين وضعوه الأوغاد؟

انسحبت أنفاسي بغتة حين رمى قطعة أثاث ما كانت متفحمة فلم أستطع تحديد ما كانته، اقترب مني بعيني متخضبتين وبضعف من أعيته النكبات سألني بترقب:

- فريدة ألا يظهر لك إياد الآن يدلنا على مكانه؟

اكتفيت بهزة من رأسي مفادها النفي، وعيناني تحومان بأرجاء المنزل تبحثان عنه، هم إيهاب بصعود السلم الذي ما انفك يصعده ويهبطه مرات ومرات حتى

عصير الكتب

غَوْث

أتانا صوت أنثوي وجل يحمل بين طياته كل معاني الخوف والهلع، التفت كلانا لمصدر الصوت ناحية الباب وكانت هي كما أنبأتني نبرة صوتها المألوفة.

****

دنا إيهاب منها شاخصًا بصره وكأنما كان ينظر لشبح لا لامرأة، أخذته بثينة بين أحضانها فيما كانت تقول وهي تنتحب:

– اذهب يابني من هنا بأسرع وقت، لقد أخبرتهم أنك هنا ولابد قادمون.

عصير الكتب

غَوْث

تطلع إيهاب إليها بعدم فهم وسألها عمن تتحدث، فأجابته من بين شهقاتها المفجعة:

– لقد هددتني بأن تحرق قلبي على ابنتي..

منعتها شدة البكاء من استئناف حديثها، فحثها إيهاب وهو يهز جسدها الضعيف بين يديه:

– من هددكِ أهي جهاد؟

أومأت برأسها وبدأت بسحبه من ذراعها وهي تهتف بخوف:

عصير الكتب
غَوْث

- أرجوكما أن تخرجا الآن، إنهما قادمين لقد أخبرتها أنكما هنا بعدما هددتني.

ولكن إيهاب أفلت يده من قبضتها ثم سحبها داخل صدره فبدت كما لو أنها طفلة تبكي وتنتحب وهو يهدهدها بحنان، سألها بعدما هدأت ثورة بكائها قليلًا:

- اخبريني كل شيء يا بثينة، أنا لا أفهم من حديثكِ شيئًا.

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

هنا تراءى أمام ناظري يوم أن دلتني على منزل إياد، يومها شعرت كأنها تُخفي في نفسها كلامًا تريد أن تُفضي به ولكن يمنعها شيء ما، فعالجتها بالسؤال وأنا أدنو منهما:

-لقد زرتكِ يومًا بمنزلكِ ولم تطلعيني على شيء ما أليس كذلك؟ أنتِ تعلمين أن إياد قد حُرق هنا بهذا المنزل وتكتمتي على الأمر.

رمقها إيهاب بنظرات الخذلان، فأخذت تدافع عن نفسها فيما كانت تتحسس بيدها على وجهه وكأنما تحاول البحث في ملامح عن الغفران:

- أعترف أنني رأيتهما وهما يفعلان ذلك، وأقسم لك أنني هممت بإبلاغ الشرطة لولا تلك الحية جهاد التى رأتني فأمسكت بي وهددتني إن أخبرت أحدًا أن ترفع علي قضية، بل وذهب بها الجحود أن قالت أنها ستدفع من ينهك شرف ابنتي.

انهارت داخل نوبة أخرى من النحيب، فمسد إيهاب فوق رأسها وسألها بصوت أجش:

- هل تعرفين أين هي جثة أخي؟

عصير الكتب
غَوْث

انتفضت المرأة وكأن يديه ماس كهربائي صفع جسدها، وأخذت تصيح كالمحمومة:

- لقد أخبرتها أنكما هما، لا داعي للماطلة هيا انفدا بجلدكما.

ولكن تحذيرها جاء متأخرًا إذ سرعان ما وجدت عدنان يصوب بمسدس نحو إيهاب الذي وقف أمامه متحفزًا، بعدما إندفع هو وجهاد من الباب بغتة، دفعني الخوف صوب عدنان أمنعه ولكن جهاد حالت دون ذلك إذ سبقتني في ردة الفعل وكان شعري ملفوفًا

عصير الكتب

غَوْث

بقبضة يدها، ندت عني آهة وجع، ورأيت إيهاب يندفع نحوها يهتف بحنق:

- اتركيها يا حقيرة.

سمعت صوتًا مدويًا اهتزت له روحي كما اهتزت جوانب المنزل، حدقت بإيهاب الذي ترك الألم علاماته فوق وجهه، وكأن أحدهم أمسك بساعة العالم وأحدث بها عطلًا ما، إذ باتت الحركة بالإيقاع البطيء وأنا أرى إيهاب يتداعى فوق الأرض شاخصًا بصره نحوى وكأنما يطلب مني الخلاص من وجعه، واضعًا يده فوق كتفه الذي أصيب برصاصة للتو،

عصير الكتب
غَوْث

حاولت التملص من قبضة جهاد وعقيرتي تجود بأعلى ما لديها فخرج صوتي مكلومًا كروحي وأنا أنادي باسمه،

تضاعف داخلي الفزع حين رفع مقلتيه التي صبغتا بلون الدم نحوي وقال بنبرة ألم بينما يضع يده فوق جرحه الدامي:

- لا تقلقي أنا بخير.

هنا قهقهت جهاد بجزل لتتوجه بالحديث لعدنان الذي شاركها الضحك:

عصير الكتب
غَوْث

– انظر يا عدنان لعصفوري الحب، من كان يصدق أن إيهاب الصارم سيقع يومًا بالحب.

لم أعر حديثها أدنى اهتمام، كففت عن محاولة التملص من قبضها، كنت أظن أن ما أشعر به الآن هو أقصى أنواع الألم، ولكني أدركت أن هناك ألمًا آخر من نوع خاص حين لمحت فؤاد وهو يدنو من باب المنزل لينظر بريبة لما يجري داخله ثم يولي هاربًا!

****

عصير الكتب

غَوْث

سمعت عدنان وهو يعلق بصوت كريه :

- ما رأيك يا جهاد أن نتخلص منهما وندفنهما بجوار بعضهما كي يعيشا معًا بالعالم الآخر.

رنت قهقهاتهما برأسي كالناقوس، حدقت بإيهاب الذي بدأ الدم يُغرق كل ثيابه، تخلت القوة عن جسدي بيد أنني تحاملت كي لا أقع، نظرت لبثينة التي انزوت على نفسها بأحد الأركان تلطم خديها بصمت، دارت الدنيا من حولي وحلت على عيني غمامة من الدموع فاعتصرت جفنيّ لأزيحها كي أفسح لنفسي مجالًا للرؤية، زارني عزم مفاجئ،

عصير الكتب

وقوة بعد ضعف، أبدًا لن تكون هذه النهاية، وكزت جهاد بكوعي فصاحت بألم وتركت شعري لأباغتها بحفنة من التراب التقطها من فوق الأرض وألقيتها فوق عينها، هالني باديء الأمر صوت ضربة أخرى من مسدس عدنان ولكني تبينت أن إيهاب كان مثلي بردة فعله إذ أخذ عدنان على حين غرة وألقى حفنة من التراب فوق عينيه، ولكن الأخير تفادى الأمر وكاد يهاجم إيهاب

بينما كانت جهاد تسحبني

عصير الكتب

غَوْث

من قدمي وهي تغالب ألم عينيها، كاد قلبي يسقط وأنا أرى إيهاب يتلوى ألمًا وعدنان يسدد له الصفعات ولكن حدث ما لم استنتجه، إذ دخل فؤاد بغتة وهجم بأداة حديدة فوق رأس عدنان ليخر صريعًا بالحال، حدقت بفؤاد الذي بدأ صدره يعلو ويهبط ثم قال بغيرما لعثمة:

– إن الشرطة قادمة بالطريق.

شقت حنجرتي صرخة إذ ألقت جهاد حفنة من التراب فوق وجهي، سمعتها وهي تحاول الفرار ولكن بثينة وفؤاد حالا دون ذلك، فتحت عيني أجاهد

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

حرقة ألمت بها، وكان إيهاب أول من نظرت إليه، دنوت منه أمسح حبات العرق من فوق وجهه،

نظر إلي بضعف وقال فيما كان يحاول النهوض:

- يجب أن أعرف أين دفناه؟

ساعدته في النهوض ثم أفلت يده من يدي وهو يقترب من جهاد التي كانت بقبضة فؤاد ليخنق عنقها بيد واحدة ويسألها من بين أسنانه المطبقة:

- أين وضعتما جثته؟

ولكن وجه جهاد حال أحمرًا إثر اختناقها، فقلت له بينما أحاول أن أزيح يده المتخشبة فوق رقبتها:

- إيهاب إنها تختنق.

بدا كما لو كان شخصًا آخر، عيناه تشعان غضبًا ووجهه يرتعد من كثرة انفعاله، أكاد أجزم أنني أرى غمامة سوداء حلت أمام ناظريه، جاهدت لفك قبضته ولكنها كانت بالقوة الكافية لتصمد أمام عشرة رجال غيري، احتقن وجه جهاد بالدماء وبدأت تفقد الوعي فصرخت به:

عصير الكتب
غَوْث

- إيهاب اتركها ستموت بيدك.

حل قبضته فجأة لتشهق بعنف باحثة عن أكسجين يسد رمق رئتها،

ثم قذفته بلعابها ليخر إيهاب بالتزامن مع بصقتها كمان لو أنها قذفته برصاصة.

اختلطت صرختي الوجلة بصرخة بثينة الفزعة، جثوت فوقه أبحث عن نبضاته، فزفرت بإعياء حين وجدته يتنفس بصعوبة، وأنات ضعيفة تخرج من بين شفتيه الشاحبتين، سمعت طنينًا مزعجًا بأذني،

عصير الكتب
غَوْث

رفعت ناظري إلى أحد الأركان وكأن أحدًا ما يتحكم بحركات جسدي، رأيت ممرًا صغيرًا فوقفت أدنو منه، سمعت صوت فؤاد المتسائل وكأنه قادم من بعيد، قادتني قدماي لأعبر الممر وكأنني مسلوبة الإرادة تمامًا كعروس ماريونيت يتحكم بخيوطها قوة خفية، رأيت بابًا صغيرًا فوجلته، لأجد بقايا مطبخ أكلته النيران، وضعت يدي بعنف فوق أذني حين دوت صرخة امرأة داخل عقلي، سمعت همهمات داخل رأسي، تذكرت الحلم الذي سمعت به مثل هذه الأصوات من قبل،

تعالت الهمهمات لتصبح أصواتًا واضحة،

عصير الكتب

أصبح جليًا بالنسبة لي أنها صرخة جهاد يوم أن كشفهم إياد، أزحت يدي من فوق أذني حين خفت الأصوات، أكملت سيري مسلوبة الإرادة وكأن أحد آخر تلبس جسدي. توجهت رأسًا إلي دولاب خشبي فوق البتوجاز المنصهر، فتحت رفًا طوليًا لتقابلني كتلة ما ارتطمت بجسدي فسقطت فوق الأرض وبسرعة محمومة تراجعت بجسدي للخف ناظرة لما سقط فوقي للتو، اتسعت عيناي برعب وشقت السماء صرخة سحبت روحي معها حين رأيت وجه إياد الذي ذهبت ملامحه إذ انصهرت فوق بعضها، غامت الدنيا أمام

عصير الكتب

عصير الكتب

ناظري وبدأت العتمة تعشش رأسي شيئًا فشيئًا إلى أن تخلى الوعى عني وكان آخر ما رأيته شرطي يدلف من الباب.

هناك شيء ما يركض ورائي، أطلق قدمي للريح ولكن العتمة حولي تكبلني فلا أعرف أي الطرق يجب أن أسلك، تزداد وتيرة تنفسي، ويدق قلبي بعنف، يا إلهي إن الشيء الذي يعدو خلفي أيًا كان هو يقترب مني،أستطيع سماع لاهثه، إنه يقترب أكثر وأكثر، أبذل قصار جهدي كي أزيد من سرعتي، ولكنه يقترب أكثر، تتقلص المسافة بيننا، يقترب،

غَوْث

إنه خلفي تمامًا وفجأة يرتطم جسدي بكيان ما أمامي، أنظر بذعر لأري وجه عدنان المكفهر ينظر إليّ بتوعد، أرجع للخلف بينما يتقدم ناحيتي ببطء وعلى محياه نظرة ألقت الرعب داخل قلبي، أشعر بأنفاس خلفي تلحفني، التفت لأجدها جهاد ممسكة بسكين وتشهره بوجهي، أدفعها وأركض بعدما تجاوزت جسدها المسجى، عدنان يركض خلفي، لا أسمع سوى صوت لهاثي وكأنه لا يوجد غيري، أرى منبع ضوء يتراءى لي من بعيد، أركض صوبه والمسافة بيني وبين عدنان تتسع شيئًا فشيئًا.. وقفت بأنفاس مبهورة

عصير الكتب

وخافق ثائر أحدق بذلك الجسد المسجى وسط بركة دماء.. أقترب بتوجس لأجده إيهاب، شقت السكون صرخة كنت أنا مصدرها، تناهى إلى سمعي صوت دافيء، نبرة تحمل بين طياتها حنان يكفي كي يزيل أيما وجل بقلبي، تطلعت لمصدر الصوت فإذا به أبي.

وكأنما كان الفجر بعد ليل طال، تبدت العتمة حولي وظهرت حديقة غناء مكسوة برداء أخضر من العشب، دنوت منه فإذا به يقرأ إحدى المجلات. تسمرت مكاني وشُلّت حركتي حين التفت نحوي بغتة، رمقني ببسمة حلت الربيع بقلبي،

عصير الكتب.
غَوْث

تفتحت أزهاره وعم رحيقها بروحي، انتصب واقفًا ليواجهني ببسمته التي خطفت أنفاسي فما عدت بحاجة إليها ثانية، أتاني صوته فرفرف قلبي بجزل:

- اشتقت لكِ يا مهجة الفؤاد.

اندفت أدفن نفسي بأحضناه، فتعالت حسرتي حين وجده يتلاشى كالبخار في الهواء، حدقت بين يدي بذعر أبحث عنه،

تطلعت حولي وأنا أصرخ "أبي أين أنت؟" جاءت همهمات من مكان ما، تتبعت مصدر الصوت بتحفز،

عصير الكتب

فهالني رؤية إيهاب المسجى داخل بركة دمائه،
هرولت ناحيته وأنا أصرخ باسمه...

****

تطلعت للأوجه المزعورة حولي بعدم فهم، لثانية اختلت وظائف عقلي فما عدت قادرة على تذكر شيء، استكنت داخل حضن أمي التي أخذت تمسح على رأسي متمتمة بآيات من القرآن اختلطت بدمعاتها، أغمضت عيني أنهل من رحيق حنانها ما يعوضني عن غياب أبي، شعرت بيد ذات أصابع طويلة باردة الملمس ممسكة بيدي، فتحت عيني لأرمق صاحبة اليد

عصير الكتب
غَوْث

فإذا بها ليندا التي كانت دموعها تنحدر بانسيابية فوق وجنتيها البارزتين، ابتسمت لها بضعف وأبعدت نفسي من حضن والدتي برفق، فسمعت نفسي أقول بهمس:

- أين إيهاب؟

صرخت والدتي بعنف مفاجيء:

- واللّه لولا حالتكِ هذه لكان لي كلام آخر معكِ، أتكذبين على أمكِ يا فريدة؟ أهذه تربيتي لكِ؟

عصير الكتب

تداركت ليدنا الموقف وهو ما جعل الامتنان يحتل جانبًا مع الوجل بخافقي، فوقفت تحتضن أمي من ظهرها لتقول:

- ما يهمنا الآن أنها بخير يا خالة.

أشاحت أمي وجهها بغضت لتقول بتبرم:

- ولمَ تدخل نفسها بأمور كهذه؟ مالنا وهؤلاء البشر؟

ثم نظرت إلي بمزيج من الغضب والخوف لتستأنف بنبرة غلب عليها البكاء:

- واللّه ما كان قلبي ليتحمل أن يصيبكِ مكروه.

عصير الكتب

عصير الكتب

ثم انخرطت ببكاء مرير، أخذتها داخل أحضاني لتتلقفني هي بلهفة ونحيبها يزداد أكثر.

تطلعت بالغرفة حولي فاكتشفت أنها غرفة بمشفى حكومي، من جدرانها التي تخلى الطلاء عنها، وأثاثها المتهالك،

لاحت ذكرى إيهاب حين أصابته رصاصة بكتفه أمام عينيّ، توجهت بالحديث للِيندا للتي كانت تربت على ظهر أمي:

- ما الذي حدث؟

تنهدت بإعياء وقالت كما لو أنها شاهدت كل شيء:

- قبضت الشرطة على جهاد، وعدنان هنا بالمشفى ولكنه مازال على قيد الحياة، ستحقق الشرطة مع فؤاد أولًا قبل أن تطلق صراحه.

سألتها بخفوت ووجيب قلبي يعلو بخوف:

- وإيهاب؟

أجابت ببساطة كما لو أنه أمر بديهي:

- بالغرفة المجاورة كانت إصابته سطحية حمدًا لله.

عصير الكتب

تبرمت أمي وسحبت نفسها من بين ذراعي، لم أستطع أن أهديها جل تركيزي إذ كان القلق قد استبد بي ولم يتنازل عني بعد، سألت ليندا ثانية:

- وماذا عن أمر السم؟

جلست على مقعدها لتقول بأريحية:

- وهذا أيضًا أخبرنا به الشرطة.

- ليندا لا يهمني أمر الشرطة ولا جهاد ولا عدنان في شيء، جل ما يهمني هو سلامة إيهاب، هل قاموا له بتنظيف معدة أم لا؟

عصير الكتب

هنا تشدقت أمي بفمها لتضحك ليندا بجزل كما لو إن الوضع يتحمل:

- لا تقلقي فإيهاب لم يأخذ الدواء يومًا.

- ماذا؟

قطع حديثنا صوت طرقات قبل أن يدلف فؤاد إلى الغرفة، ليقول ببشر بعدما سألني عن حالي:

- ت ت ت تم إثبات تهمة جهاد وعدنان.

رمقته بامتنان وسألته:

عصير الكتب

– كيف عرفت أننا بذلك المنزل يا فؤاد؟

ابتسم:

– عندما ك ك كنت أخبركِ بأمر الدواء نسيتي هاتفكِ مفتوحًا ث ث ثم سمعت صوت إياد.. ع ع ع عفوًا أقصد إيهاب وهو يقول أنكما ذاهبان إلى هناك.

نظر لليندا وكأنه يعنيها بالحديث فبدا كطفل يستعرض إمكانياته أمام فتاة معجبًا بها وأردف بدون تلعثم:

عصير الكتب
غَوْث

– عندما ذهب سمعت شيء من حديثم، . ورأيت إياد يجثو فوق الأرض ورحلًا يمسك سلاحًا بإحدى يديه، ثم تسللت بخفة كي لا ينتبه لوجودي أحدهم وهاتفت الشرطة ثم بحثت عن أداة لأهجم به على الرجل ذو السلاح.

تذكرت ما ظننته به من غدر حين رأيته يتسلل مبتعدًا، فخفق قلبي بحزن واكتفيت بنظرة أسف رمقته بها.

عصير الكتب
غَوْث

١١

مهمة إنقاذ جديدة

توجهت بعدما أدليت بشهادتي للشرطة –مكتفية بما أردت لهم معرفته– رأسًا إلى غرفة إيهاب يحملني الشوق، ويخطو جانبي الارتباك، وقفت أمام الباب ووجيب قلبي يزداد اضطرابًا، سحبت نفسًا ثم طرقت الباب لأدخل بعدما جاءني صوته الحاني، نظرت إليه فإذا هو يحدق بي وعلى وجهه إمارات الدهشة، مما زاد من ارتباكي، أكان يظن أنني لن آتي لزيارته؟

داعب صوته قلبي وهو يقول:

عصير الكتب
غَوْث

– لقد زرت معرضًا لكِ من قبل.

حملقت به عدم فهم ولكني سرعان ما أدركت كونه تذكر حياته الأولى، دنوت منه وأنا أرسم ابتسامة فسألته عن حاله، أجاب بحماس وهو يمعن النظر بوجهي:

– أنتِ حقًا فنانة.

وقع مديحه موقعًا حسنًا بنفسي، بحثت عن كلمات شكر وقد شعرت فجأة بأن الشخص أمامي يختلف عن إيهاب الذي أعرف، لكنه أردف:

عصير الكتب
غَوْث

- من كان يصدق أن شيء من هذا سيحدث؟

أومأت بصمت وسألته:

- لمَ لم تأخذ الدواء من قبل أكنت تعرف؟

نظر إلي ولم أفهم دلالات وجهه فصعقني جوابه:

- أنا لا أذكر شيئًا مما حدث خلال فترة فقداني للذاكرة، ولكنني بطبيعة الحال لا أتناول الحبوب مهما حاول الآخرون.

حملقت به وقد سقط قلبي بفزع، وخرج سؤالي مستنجدًا:

عصير الكتب

- ألا تذكرني؟

- بالطبع أذكرك، يتراءى لي وجهك من حين للآخر، كما أنني أذكر حين كنا بعيادة أخي وجاءت لي الذاكرة دفعة واحدة.

قُبض صدري، وخُيل إلي كما لو أن قلبي يبكي داخله، تنهدت بحرقة وكما لو كان شعر بما يعتمل داخلي أردف:

- ولكن مشاعري نحوك لم تتلاشى.

تطلعت إليه:

عصير الكتب

غَوْث

عصير الكتب

- كيف؟

أجاب وهو يحك ذقنه بارتباكك:

- حسنًا قد يبدو هذا معقدًا إلى حد ما، ولكني من أشد المعجبين بفنك منذ زمن طويل، حتى أنني كنت أبحث عن معارضك كي أتلصص النظر إليكِ من بعيد.

تنهدت وهو يحك ذقنه بحرج حتى كادت تزداد التهابًا:

- في البداية كنت معجبًا بكِ كفنانة فقط ولكن شخصيتكِ جذبت انتباهي مع الوقت.

غَوْث

أطرق قليًلا ثم أردف بأسى لم أفهم أكان سببه موت أخيه أم عودة الذاكرة إليه من الأساس:

- يقول الطبيب أن عودة الذاكرة إليّ كانت شبه مستحيلة، لولا وجود شخص قريب مني وأثق به.

رفع نظره نحوي فهالني رؤية الدموع بمقلتيه، فاستطرد حديثه:

- قال هذا وقد كان حديثه على حق، إذ أنني لا أثق بأحد الآن سواكِ.

كانت كلماته المواساة لقلبي،

عصير الكتب.
غَوْث

وشعرت بدفء يحاوطني منبعه عينيه الدافئتين، جُنت خفقات قلبي بغتة حين وضع يده فوق يدي لتسري رعدة بجسدي، حدقت به فكان ينظر إلي نظرة لم أرها بعينه من قبل، قال:

– أتقبلين أن تصبحي زوجتي؟

حدقت به لدقائق، دقائق كانت كفيلة لتنحسر دمائي بغتة إلي قلبي الذي أصبح دبيبه كالناقوس بأذني، ثم سحبت يدي بسرعة كالملسوعة وفررت من الغرفة قبل أن ألقي كلمتي بهمس ظننته لم يسمعها ولكني أدركت فيما بعد أنها بلغته:

عصير الكتب
غَوْث

– موافقة

****

بعد شهر من المكوث بالمشفى خرجت مع إيهاب الذي أدركت أنه لم يتغير بعودة الذاكرة إليه، وإنما أثقل الحزن روحه، وشوهت قلبه كدمة فقدان أخيه، أُعجبت به من جديد حين تراءى لي شخصه الحاني، وطبعه الهادئ، أخبرني بأنه كان يعرف حقيقة جهاد وكثيرًا ما حاول أن ينبه إياد ولكن الأخير كان يعميه الحب.

عصير الكتب
غَوْث

أجفلت حين شعرت بيد إيهاب وهو يقودني نحو إحدى السيارات:

– فيمَ تشردين؟

– لا شيء

اتخذت مجلسي بجواره داخل السيارة، توجه لي بالحديث فيما كان يضع حزام الأمان حول خصري:

– لقد اشتقت لريما كثيرا، أتمانعين أن نعرج عليها أولًا قبل أن أوصلكِ المنزل.

أومأت له رأسي بابتسامة مشجعة:

عصير الكتب

غَوْث

- بالطبع فلابد وأنها مشتاقة لعمها، فلقد منعتها من زيارتك بالمشفى، هذا بالإضافة لتمسكك بألا أذهب إليها وأراها بدونك

ربعت يدي بغضب وأردفت:

- لا أفهم تفكيرك ولا أرى لعنادك سببًا.

قهقه بجزل وهو يدير المقود، ليقول كمن يشاكس طفلًا:

- يا فريدة أود أن أُعرف أبنت أخي بزوجتي المستقبلية بنفسي، ما الضير بهذا؟

عصير الكتب
غَوْث

زفرت بحنق واكتفيت بالنظر أمامي، فرتب صوته الحاني على خافقي وهو يقول:

- بالإضافة لكونها طفلة لم تتخط عامها الثامن لا أحبذ أن ترى أجواء المشفى فيؤثر ذلك على نفسيتها.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام، دائمًا ما يفكر بغيره من حيث لا أفكر أنا، تنهدت قبل أن أقول بخضوع:

- حسنًا أعترف أنت محق.

ضحك ليقول بحماس مفاجئ:

عصير الكتب
غَوْث

- أتعرفين أنها تحب الرسم؟

- حقًا؟

- نعم ولقد اصطحبتها معي مرة بإحدى زياراتي لمعرض لك، ولكن كانت خيبتي عظيمة عندما لم أجدكِ وعرفت من العاملين أنكِ تخلفني عن حضوره لظروف طارئة.

التفت مبتسمة للطريق أمامي حين كان يركن السيارة أمام إحدى البيوت والتي عرفت منه مسبقًا أنه منزل

عصير الكتب.
غَوْث

جهاد الذي ورثته عن والدها، قُلت بمزاح لم أعرف أنه سيكون عين الجد فيما بعد:

– حسنًا موهبة رسم أخرى ومهمة إنقاذ جديدة.

****

فتحت لنا خادمة كهلة غزت وجهها بصمات الدهر، حتى كادت ملامحها تخبو خلف حاجز التجاعيد، تعرفت على إيهاب على الفور ورحبت بنا ببشاشة قبل أن تختفي بإحدى الغرف لتظهر ريما التي ألقت بنفسها داخل ذراعي إيهاب وهي تهتف باسمه،

عصير الكتب

حملها إيهاب وتوجه بها لأحد المقاعد، تبادلا وابلًا من القبلات قبل أن تقول بجزل طفولي:

– كنت أعرف أنك ستعود كما كنت، وأن والدتي لم تكن محقة حين أخبرتني أنك لن تتعرف إلي ثانية..آه ياإلهي لقد حزنت كثيرًا حينما كنت أحاول التحدث معك وأنت لا تعرف من أكون.

امتقع وجه إياد ووقع بنفسي أنه يتساءل كيف ظهر أمام الصغيرة وماذا قالت لها والدتها عنه، هنا نظرت ريما إلي وكأنها تشاهدني للمرة الأولى، اتسعت ابتسامتها بخفر وهي تقول:

عصير الكتب
غَوْث

عصير الكتب

- لقد رسمتكِ

- رسمتيني أنا؟

- نعم سأريكِ اللوحة.

قفزت من فوق قدم إيهاب الذي تبادلت معه نظرات التعجب، ثم جاءت مهرولة تحمل لوحة رُسمت بقلم رصاص، حدقت بها مشدوهة، لا لقدرة فتاة بعمرها على الرسم بهذه الحرفية، ولا لمشهد منزلي الذي يتراءى خلفي باللوحة، وإنما لأنها لم ترني من قبل؟ لولا أن أخبرني إيهاب أنهما لم يجدانني حين

غَوْث

صحبها لمعرض لي لكنت ظننت أنها رسمتني من مخيلتها، ولكن وبالإضافة لكونها لم ترني بالمعرض فكيف لها أن ترسم منزلي بكل هذه الدقة! سمعت صوت إيهاب الوجل وهو يسألها بما لم أستطع قوله:

- لمَ رسمتها يا ريما ومتى رأيتِ فريدة من قبل؟

فأجابت ببساطة وهي تهز كتفيها:

- أراها دائمًا مع أبي بأحلامي.

"تمت بحمد الله"

عصير الكتب

غَوْث